الشيعة الإمامية

من ورطة النص إلى أزمة العقل

الطبعة الثانية



وليد صادق

تمهيدي ماجستير شريعة إسلامية



الشيعة الإمامية: من ورطة النص إلى أزمة العقل

الطبعة الثانية

٢٠٢٧

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾

الأنعام ١٥٩

سبحانك

لا علم لي إلا ما علمتني

ولا حول ولا قوة إلا بك

فاللهم

برحمتك أستغيث

وبك أستعين

وعليك أتوكل

في موافقة مرضاتك

المحتوى

- مقدمة ٦
- تمهيد ٨
- الأساس المعرفي للتشيع المذهبي ١٠
- من التأثر بالمعتزلة إلى الامتزاج بالفرس ١٣
- كيف تشكّلت البنية التاريخية للمذهب الشيعي ١٥
- الفرق بين المنهج السني والمنهج الشيعي في مصادر المعرفة ١٧
- القاعدة الذهبية في الحوار مع الشيعة دون انفعال أو جدل عقيم ١٨
- تفكيك المفاهيم التي تأسس عليها التشيّع ٢٠
- العصمة ٢٠
- الولاية الدينية ٢٢
- المهدي والغيبة ٢٤
- التقية ٢٩
- البداء ٣١
- الامامة كبديل عن النبوة ٣٣
- الولاية التكوينية (إدارة الكون) ٣٩
- القيمة العلمية لروايات كتب الحديث الشيعية ٤٢
- تحليل الأسس العقلية والنقلية التي بنوا عليها تلك المفاهيم ٤٤
- التقييم الفلسفي البنيوي للفكر الشيعي بعد اكتمال تحوّله

من مشروع سياسي إلى منظومة لاهوتية كونية ٦٠
- من المظلومية إلى الهوية ٦٢
- الرد على الشبهات ٦٧
- ابن سبأ وحقائق أخرى (تجعل الشيعة تشعر بالخجل) ٨٦
- اللحظة التي واجهت فيها "الفكرة الأصلية" واقعا لم يطابق التوقع، مع مناظرة تخيلية لتثبيت الفكرة ٩١
- الخاتمة ١٢١
- المصادر والمراجع ١٢٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفسنا، ومن سيئاتِ أعمالنا، مَن يهدهِ الله فهو المهتدي، ومَن يُضلل فلا هاديَ له.. وأشهدُ أَنْ لاَ إله إلاَّ الله وحده لا شريك له. اللهم صل على مُحَمَّد وعلى آل مُحَمَّد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

أما بعد.. فقد بدأت هذا البحث لسبر أغوار التشيّع المذهبي، فوجدت نفسي أمام بناء مشيد على رمال متحركة.. رمال "النص المفقود" عن إمامة علي ﷺ، و"الحق المغتصب" الذي لم يعرفه الصحابة الذين.. رضي الله.. عنهم.. ورضوا عنه.

ووجدتني أسأل نفسي: كيف لسفينة النجاة أن تبحر – بأمة كاملة – إذا كانت قد غرقت من أول قيادة لها ؟!

وكيف يمكن الوثوق بكتاب جمعه – حسب زعمهم – مرتدون ؟!

إنها معادلة تحطم القلوب قبل أن تحطم العقول.

نظرت في عقيدة الإمامة فوجدتها قد حوّلت أهل البيت إلى سلالة مغلقة، وكأن نهر النبوة قد جفّ فجأة ليحل محله روافد من العصمة المزعومة، يغيب معها الإمام في سرداب، وتغيب معه أحلام طائفة تتخبط في ظلام الانتظار.

وتأملت في شجرة الأمة التي حاولوا قطع جذورها – بعدما غفلوا عن أن قطع تلك الجذور يعني انهيار مشروع الشجرة بأكمله – فوجدت ثمارها امتدت إلى مشارق الأرض ومغاربها، وظهر دينها على الدين كله؛ فتحقق فيهم – وبهم – وعد القرآن.

ووصلت إلى بحر العقائد المتلاطم:

بداء.. يجعل علم الخالق – تعالى الله عن ذلك – متقلبا كأمواج البحر.

تقية.. تحول الدين إلى مسرحيات تمثل على مرأى من الخلق.

متعة.. تهدم قدسية الرباط المقدس الذي جعله الله من آياته.

فاكتشفت أني أبحث عن شعاع في بحر من الضباب..

مذهب تحول إلى قصة مفقودة بين روايات متناقضة، وادعاءات عاطفية مزقت نسيج الأمة..

فكان لزاما أن أعود إلى المنبع الصافي.. إلى الإسلام كما نزل على قلب مُحَمَّد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.. قبل أن تلوثه الأهواء، وتشوهه الأطماع، وتعبث به الآراء. فأجعله حكما عدلا.. يبدد الظلمات، ويهدم الشبهات..

وهو ما حاولت أن أحققه في هذا البحث..

والله المستعان.

فاللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

وليد صادق

تمهيد

هذه قصة مثيرة؛ نعم، قصة.. مثيرة..

فالإمامة.. الاثني عشرية.. ليست مجرد مجموعة عقائد، بل يمكن قراءتها كبناء متدرج نشأ حول سؤال واحد: من يملك السلطة الدينية بعد رسول الله ﷺ؟

فالقرآن قرر ختم النبوة.. والرسول ﷺ هو المبلغ عن الله ﷻ، وقد اكتمل الدين قبل موت النبي ﷺ.

فإذا انتهى عصر النبوة، فهل بقيت ضرورة لوجود شخص يختاره الله عز وجل ليكون المرجع الديني المعصوم بعد النبي ﷺ..؟

والبداية: هي تحديد "الفكرة الأُم".. حيث لن أبدأ من النتائج، بل سوف أبحث عن الآلة التي أنتجت النتائج.. وما الذي حدث في اللحظة التي واجهت فيها الفكرة الأصلية واقعا لم يطابق التوقع؟ هل أُنشئت فكرة جديدة "إسعافية" لحماية الفكرة الأولى؟ أم أُعيد تفسير الواقع، أم أُعيد تفسير النص، أم كليهما؟![1]

فلن أبدأ من سؤال: هل بدأت الشيعة الاثنا عشرية من عقيدة "الإمام المعصوم"، ثم

---

[1] هذا نمط معروف في تاريخ الأفكار يتكرر كلما انحرف الإنسان بالنص أو تصور الواقع بغير حقيقته، فعندما توهم اليهود أنهم أصحاب وعد إلهي بالتمكين في أرض كنعان (الذي كان عهدا وليس وعدا)، اصطدموا بالطرد منها، فلم يطابق الواقع التوقع، فدفعهم ذلك لاعادة تفسير النصوص.. وهو ما حدث مع النصارى عندما توقعوا أن بشارات النبي ستتحقق في المسيح وأنه سيقيم الملكوت، فاصطدموا بواقع الرفع (الصلب) قبل تحقق النبوءات، فخالف الواقع التوقع، فأعادوا تفسير النصوص.. وهو ما حدث مع الفرق الكلامية عندما اصطدمت بالواقع الفلسفي الذي توهم بطلان الصفات الإلهية، فأعادت تفسير النصوص.. وما حدث مع فرق الشيعة التي اعتقدت بضرورة وجود إمام معصوم بعد النبي ﷺ واصطدمت بغيابه، فأعادت تفسير النصوص، كما سيأتي !

أعادت قراءة التاريخ والنصوص لإثباتها؟ بل من السؤال الأسبق: لماذا أصبح، أصلًا، من الضروري أن يكون هناك إمام بعد النبي ﷺ..؟

فخلافنا – الحقيقي – معهم ليس في: أبو بكر الصديق أم علي بن أبي طالب؟ بل أعمق وأسبق من ذلك: هل يوجد أصلا منصب إلهي اسمه "الإمامة" بعد ختم النبوة؟

إذا ثبت وجود المنصب، انتقلنا إلى سؤال صاحبه..

أما إذا لم يثبت المنصب، فسيصبح السؤال عن صاحبه عبثا، وهنا تبدأ المفارقة؛ لأن هناك فرقا هائلا بين القول: هذه العقيدة كانت موجودة منذ البداية.. وبين أن نكتشف أن هذه العقيدة ظهرت بعد أزمة تاريخية معينة، ثم أصبحت تفسيرا للماضي نفسه !

لذلك فإن السؤال – المحوري – الحاسم الذي سأطرحه على الشيعي، من خلال هذا البحث، هو: أثبت لي أن الله جعل بعد خاتم الأنبياء منصبا إلهيا اسمه الإمامة، لا يكتمل الدين إلا به؛ لأن هذه المقدمة إن سقطت، فسوف نرى كم حجرا من البناء كان قائما عليها.. وكم سيكون حجم الإنهيار..

وهنا بالضبط تبدأ المتعة..

ألم أقل لك إنها قصة مثيرة.

الأساس المعرفي للتشيع المذهبي

الفكر الشيعي لا يُفهم من خلال الفقه أو العقيدة وحدهما، بل من خلال منهج المعرفة الذي يقف خلفهما.. أي.. تأويل النص.. بالعقل المذهبي المسبق..

أولا: البنية العميقة للعقل الشيعي

يختلف الفكر الشيعي كمحتوى (عقائد ومقولات) عن المنهج الذي يُنتجه (طريقة التفكير التي أوصلت إلى تلك المقولات).. فالمنهج الذي يُنتج الفكر الشيعي هو الطريق الذهني الذي يجعل الإنسان ينتهي إلى النتائج الشيعية بدلا من النتائج السنية أو غيرها،، وهذا المنهج يقوم على عدة ركائز:

العصمة المنهجية للإمام المعصوم

الشيعي لا يبحث عن الحقيقة بالاستدلال المباشر من القرآن والسنة كما يفعل السني.. بل يسلّم بأن الإمام المعصوم هو الوسيط الحصري لفهم الدين؛ لأن الله أودع عنده علم الكتاب كله.. وبدل أن يكون المعيار في الحق هو (ما ثبت عن النبي ﷺ بالوحي)، يصبح المعيار هو (ما قاله الإمام بالعصمة) !

وهذا يبدّل مركز الثقل من الوحي الإلهي إلى العصمة البشرية ! فالمركزية للإمام لا النص.. حيث يبدأ الفكر الشيعي من الإمام لا من الوحي؛ فالعقل الشيعي لا يبحث عن "ماذا قال الله ؟ بل عن كيف يُفهم كلام الله عبر الإمام !

التفسير الباطني للنصوص

لا يُفهم النص القرآني أو الحديث عندهم على ظاهره، بل له "باطن" لا يدركه إلا الإمام.. وهذا الباطن قد يُناقض الظاهر أحيانا، مما يجعل النص خاضعا للقراءة

التأويلية لا للتحليل الدلالي.

المركزية الشعورية لا العقلية

التشيع ليس.. منظومة فكرية.. بقدر ما هو.. وجدان جماعي.. متمحور حول المظلومية (مأساة آل البيت).. فالانتماء العاطفي مقدَّم عندهم على البرهان العقلي ولتعويض غياب النصر الواقعي صُنعت أسطورة النصر المعنوي: فالإمام قُتل، لكنه انتصر بالحق، وسيعود عبر "المهدي المنتظر" ليُكمل الثأر.. فالمظلومية لم تعد مأساة، بل أصبحت منهج تفسير للقدر.

المنهج الجدلي التعويضي: لأن الفكر الشيعي نشأ في بيئة سياسية مغلوبة، نشأ معه عقل احتجاجي يحوّل النقص في السلطة إلى تعويض ديني.. فالمظلومية ليست عرضا بل أداة تفسيرية لكل التاريخ، وبذلك يتحول الفكر إلى لاهوت صراع.

ثانيا: الآليات الذهنية المشتقة من ذلك

هذه الركائز تنتج بالضرورة عقلا عاطفيا تأويليا – يختلف عن العقل السني الاستدلالي النصي الموضوعي – يفكر بآليات ذهنية محددة:

– التفسير الدائري: كل دليل يُعاد تأويله ليثبت المذهب الذي فُرض مسبقا.

– الاصطفاء النصي: انتقاء النصوص التي تخدم الفكرة المسبقة، وتأويل أو تضعيف ما يخالفها.

– التشييد فوق المظلومية: أي اعتبار الاضطهاد دليلا على الصواب، لا مجرد حدث تاريخي.

– الاستعاضة الروائية: حين يغيب النص القطعي، تُصنع روايات تُنسب إلى الأئمة

لسد الفراغ المعرفي.

– المفاصلة الشعورية: حيث يُفصل الوعي الشيعي عن التاريخ الإسلامي المشترك ليُبنى عالم بديل "موازي" (عالم الأئمة مقابل عالم الصحابة).

ثالثا: النتيجة الفكرية التي يولّدها هذا المنهج

من هذا المنهج تنبثق النتائج التالية:

– نشأة فكرة الإمامة الإلهية كبديل عن النبوة في الوظيفة، لا في التشريع.

– ظهور العقائد الباطنية (لكل نص ظاهر وباطن لا يعرفه إلا الإمام).

– تكوين المنظور الثنائي – الداخلي – للتاريخ (نحن مقابل هم).

* رغم أن التشيع على مستوى الدين يؤسس فلسفة استدلالية، لكن على مستوى المذهب فهو مغلق على العقل الطقوسي العاطفي بدل العقل البرهاني النصي.. بطريقة تشبه العقلية النصرانية في حوار الملاحدة.. حيث تكون استدلالية برهانية طالما تعلق الحوار بفكرة الربوبية..

أما إذا تحول الحوار إلى الإلهية وصفات الرب (التثليث والتجسد) فتراهم يتحولون فورا إلى العقل المغلق على العاطفة والفداء – بدل البرهان والاستدلال !

فما أشبه السرداب بالصليب.. كأداة لتبرير التناقض.

وما أشبه السقيفة بأكلة الشجرة.. كمنطلق لاختراع العقائد وتأليف الروايات.

وما أشبه كربلاء بالفداء حيث لم يعد الصراع على الحكم صراعا سياسيا، بل تحوّل إلى صراع بين الحق والباطل، أي بين "الإمام المظلوم" و"الظالمين الغاصبين".

وهكذا ينطلق الفكر الشيعي من العاطفة لا من الدليل، ومن العزاء لا من الحقيقة.

من التأثر بالمعتزلة إلى الامتزاج بالفرس

حين تطور الفكر الشيعي، وجد نفسه أمام تحديين: كيف يُبرر عصمة بشر بعد النبي ﷺ ؟ وكيف يربط الغيب بالإمام وهو بشر ؟

الحل جاء عبر استعارة فلسفات جاهزة من بيئتين مختلفتين:

١- من الفكر المعتزلي العقلي: استعار منه الشيعة: مبدأ العدل الإلهي العقلي لتبرير الإمامة (فالله "يجب" أن يعيّن إماما معصوما لأنه أعدل من أن يترك الناس يخطئون).

ومبدأ اللطف الإلهي لتفسير دوام وجود الإمام وإن كان غائبا.

بهذا تم نقل فكرة الإمامة من المجال السياسي إلى المجال الكلامي العقلي.

٢- ومن الفكر الفارسي الزرادشتي: تسرّبت عناصر ثلاث: الثنائية الكونية: نور وظلمة، حق وباطل، إمام وخصم..[١]

الوراثة الروحية المقدسة:

كما في سلالات الملوك الفرس، يُعتبر الإمام وارثا للنور الإلهي.

التشيع الروحي الغنوصي: وهنا نجد التطبيق الحرفي لآلية الإنسلاخ عن أي نص،

---

[١] منذ الصفحات الأولى في "منهاج السنة" فإن شيخ الإسلام ينتزع من خصمه سلاحا يحاول الخصم جعله محتكرا له: وهو محبة أهل البيت.. فالرافضي يصور القضية وكأن الناس فريقان: فريق يحب أهل البيت، وفريق يبغض أهل البيت.. ثم يجعل نفسه ممثل الفريق الأول !

أما ابن تيمية فيقول: هذه مقدمة فاسدة من أصلها.. فأهل السنة يجمعون بين أمرين: محبة أهل البيت وتعظيمهم.. ومحبة الصحابة والترضي عنهم، بينما الرافضة جمعوا بين حب "بعض" أهل البيت وبغض جمهور الصحابة.

وهو الطريق العكسي لآلية الجمع بين النصوص: فكرة أن وراء الظاهر باطن لا يدركه إلا الصفوة.[١]

ومن امتزاج العقل المعتزلي بالعاطفة الفارسية و"الجرح الكربلائي"، وُلد المنهج الشيعي[٢] كما نعرفه اليوم: عقل فلسفي في الظاهر، عاطفي في الباطن، ينتج فكرا دينيا مفعما بالرمزية والانتظار والتأويل.

---

[١] من أعمق ما في كتاب "منهاج السنة" أن ابن تيمية يرى أن المعركة الحقيقية ليست بين الأدلة فقط.
بل بين: الدليل.. والهوى.
فالهوى لا يبدأ عادة برفض البرهان.. بل يبدأ باختيار النتيجة أولا.. ثم البحث عن أي شيء يؤيدها.
أما طالب الحق فيبدأ من البرهان نفسه.. ثم يتبع حيث يقوده.
مفارقة يراها حاسمة: يرى أن طبيعة الخلاف نفسه تدل على أن النص المدعى ليس بالنص الذي تصفه الإمامية.
كأن ابن تيمية يقول: إذا كان النص منارة ضخمة أقيمت على ساحل الأمة، فكيف أبحرت السفن كلها في اتجاه آخر؟ أما إذا كانت المنارة لم تكن بتلك الصورة الواضحة أصلا، فإن المشهد يصبح أكثر قابلية للفهم.
إذ لو كان النص بهذه القوة والوضوح، لما احتاج الناس بعده إلى كل هذه السجالات.. فالحقائق الكبرى المعلومة بالضرورة لا تبقى قرونا موضوعا لتأويلات متعارضة.. وهذه قاعدة ذهبية قابلة للتطبيق في جميع العقائد والأديان.
فائدة في قاعدة: إذا أردت أن تختصر منهج ابن تيمية في "منهاج السنة" في قاعدة واحدة، فربما أمكنك أن تقول: كل دعوى تحتاج إلى دليل **يساويها في القوة.**
فالأدلة المطلوبة تزداد قوة بزيادة حجم الدعوى.

[٢] في تاريخ الفرق جميعا: تبدأ الحكاية بشخص أو حادثة أو موقف سياسي.. ثم يأتي جيل لاحق فيضيف تفسيرا.. ثم يأتي جيل ثالث فيجعل ذلك التفسير عقيدة.. ثم يأتي جيل رابع فيجعل العقيدة من ضروريات الدين.. ثم يأتي جيل خامس فيكفّر أو يضلّل منكرها.
وهكذا يتحول ما كان رأيا تاريخيا إلى أصل من أصول الإيمان.
وكأن كرة الثلج الصغيرة تتدحرج من فوق الجبل، فلا تتوقف حتى تصبح جبلا آخر.

كيف تشكّلت البنية التاريخية للمذهب الشيعي

لفهم التشيّع لا يكفي تحليل أفكاره، بل يجب تتبّع الوجدان الجمعي الذي كوّنه.

فالمذهب الشيعي ليس ثمرة تأمل عقلي أو تنظير لاهوتي بقدر ما هو ردّ فعل تاريخي تراكم عبر ثلاثة أطوار:

الطور الأول: التشيع السياسي

عندما انقسم المسلمون سياسيا حول أحقّية الخلافة:

- فريق رأى أن الخلافة بالشورى[1] (النهج السني).
- وفريق رأى أن الخلافة بالنصّ الإلهي على عليّ بن أبي طالب (النهج الشيعي).

إذن البداية لم تكن دينية بل سياسية، ثم تحولت إلى مذهب مع مرور الزمن.. لكن بعد مقتل الحسين ﷺ، تحوّلت السياسة إلى عقيدة دم ومأساة، وهنا يبدأ الطور الثاني.

الطور الثاني: التشيع العاطفي (المأساوي)

أصبح مقتل الحسين في كربلاء هو المركز العاطفي والرمزي لكل الفكر الشيعي.. فهو ليس حادثا تاريخيا فحسب، بل هو الدراما المؤسسة للهوية الشيعية.

ومن هنا وُلدت فكرة: أن الأمة خانت آل البيت.. وأن الحق الإلهي اغتُصب.. وأن المظلومية الدائمة علامة على الاصطفاء.

هذا الشعور بالمظلومية لم يعد مجرد عاطفة، بل صار نظاما نفسيا كاملا يُغذّي

---

[1] الشورى أصل شرعي مقصود، والنبي ﷺ مارس الشورى في حياته مع أنه مؤيد بالوحي، فكيف بمن جاء بعده؟ وفي القرآن سورة باسم "سورة الشورى" وفيها قوله تعالى: { وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ } الشورى ٣٧

العقيدة والسياسة معا.

الطور الثالث: التشيع الغيبي (الإمامي – الاثنا عشري)

مع اختفاء الإمام الثاني عشر (مُحَمَّد بن الحسن العسكري) وغيابه، تحوّلت فكرة " القيادة المعصومة " إلى غيبة كبرى، أي: الإمام موجود لكنه غائب،[1] وهو وحده من يملك العلم الكامل وسيعود آخر الزمان.

وهنا.. تحوّل الولاء للإمام إلى.. إيمان غيبي ميتافيزيقي، وأصبحت المرجعية تنتقل من.. (النص والعقل) إلى.. (النيابة عن الإمام الغائب).

فاندمج الدين بالتاريخ، والعقيدة بالعاطفة، والسياسة بالوجدان، لينشأ ما يمكن تسميته بـ: العقل الشيعي المأساوي التأويلي – الذي لا يبحث عن الحقيقة بقدر ما يبحث عن الإنصاف التاريخي لآل البيت.

إنّ أخطر ما أصاب البنية الذهنية في التصور الشيعي ليس الفكرة الواحدة، ولا الرواية الشاذّة، بل "منهج التعامل مع الفكرة"... ذلك المنهج الذي يجعل الاحتمال يقينا، والظن عقيدة، والأسطورة حقيقة مكتملة الأركان.

فالشيعي ـ وفق البناء المعرفي المتوارث – لا يبدأ من السؤال، بل يبدأ من الجواب الجاهز... ثم يُعيد تشكيل التاريخ، واللغة، والقرآن، والحديث، والواقع، ليجعلها جميعا تدور في فلك الجواب.

وهنا... لا يعود الدليل دليلا، بل يصبح الزخرفة التي تُزيّن المعنى المقرّر سلفا.

---

[1] هل كانت "الغيبة" نتيجة لعقيدة الإمامة، أم أن "عقيدة الغيبة" أصبحت الحل الذي أنقذ عقيدة الإمامة عندما توقفت السلسلة عن الظهور؟

الفرق بين المنهج السني والمنهج الشيعي في مصادر المعرفة الدينية

الفارق بينهما ليس في النتيجة فقط (أي: ما يؤمن به كل طرف)، بل في المنهج نفسه الذي يُنتج هذه النتيجة..

فالمذهب الشيعي لم يختلف مع السُّنة في التفاصيل فحسب، بل في.. كيف نعرف الدين أصلا..؟

المنهج السني يبدأ من النص.. فالعقل.. فالعمل.

بينما المنهج الشيعي يبدأ من الإمام.. فالتأويل.. فالنص.

النص في المنهج السني يُفسَّر بالعقل.. **العقل أداة لمفهوم يستحيل أن يعارض المنطوق**..

بينما المنهج الشيعي يبدأ بالإمام كمرجعية لفهم النص.. **حتى لو بتأويل يعارض النص**.. فيطبق النص وفق فهم الإمام لا وفق مفهوم النص.. **المنطوق**.

ومن هنا جاء اختلاف الجذور:

- السني يبني **إيمانه على الدليل**.
- والشيعي يبني **دليله على إيمانه** المسبق بالإمام.

القاعدة الذهبية في الحوار مع الشيعة دون انفعال أو جدل عقيم

من يواجه الفكر الشيعي دون إعداد نفسيّ ومنهجيّ غالبا ما يسقط في أحد فخّين:

- فخ الغضب فينغلق الباب بالحرب اللفظية.
- أو فخ المجاملة فيذوب المبدأ باسم الوحدة.

لذلك.. لا بدّ من قاعدة تضبط الحوار علميا ونفسيا معا، يمكن تلخيصها في نقاط ثلاث:

(١) افهم المنهج قبل أن تردّ على المعتقد

الخطأ الأكبر هو الدخول في تفاصيل العقيدة الشيعية (كالعصمة، والمهدي، والتقية) قبل فهم المنهج المعرفي الذي أفرزها..

فحين تقول له: العصمة لا دليل عليها.. سيجيبك: الإمام قال إنها ثابتة.

عندها ستدور في دائرة مغلقة، لأنك تناقش الفرع دون الأصل.

إذن لا تردّ على الفكرة، بل ارجع دائما إلى سؤال المنهج: من الذي أعطى الإمام سلطة تفسير الدين أصلا ؟

فإذا انهار الأساس، سقط البناء تلقائيا.

(٢) فرّق بين "العقيدة" و"الوجدان"

الشيعي لا يتحرك بدافع فكري فقط، بل بدافع وجداني عميق مرتبط بالحب والولاء والمظلومية؛ لذلك إن ناقشته بعنف، شعر بأنك تعتدي على آل البيت لا على فكرة بشرية..!

إذن خاطبه بالعقل دون أن تمسّ العاطفة: أظهر حبك لآل البيت، وبيّن أن الدفاع عنهم يكون باتباع الوحي لا بالتأليه.

فبهذا تسحب منه الذريعة النفسية للمقاومة، ويصبح مستعدا للاستماع.

(٣) لا تدخل في جدل نصيّ قبل الاتفاق على المرجعية

كثير من السنّة يبدأ الحوار بالآيات والأحاديث، فيقول الشيعي: هذه رواياتكم لا نثق بها.. فتبدأ حرب النصوص.

إذن لا تبدأ بالنص، بل بسؤالٍ سابق: ما هو المرجع الذي نحتكم إليه معا ؟ القرآن أم روايات الأئمة ؟

فإن اختار القرآن، ناقشته منه.

وإن اختار روايات الأئمة، سألته: ومن الذي أعطى الأئمة هذا التفويض ؟

وهكذا تُعيد الحوار دائما إلى نقطة المنهج لا الجدل.

بهذه القاعدة الثلاثية (افهم المنهج، خاطب الوجدان، اضبط المرجعية) تستطيع أن تحاور أي شيعي دون أن يتحول النقاش إلى صراع عقيم أو جدل عاطفي.

ولتكن الدعوة.. إلى القرآن كما أنزله الله.. إلى السنة كما بلغها الرسول.. إلى الصحابة كما رضي عنهم الرب.. إلى آل البيت كما أحبهم النبي ﷺ.

فالحق لا يتعدد، والصراط لا يتشعب، والدين ليس موسم حصاد لكل قوم ما زرعوا.

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه.

تفكيك المفاهيم التي تأسس عليها التشيّع

العصمة

تعريفها عند الشيعة: هي أن الله يحفظ الإمام من الذنوب والخطأ والنسيان في القول والعمل والعقيدة، بحيث يكون قوله وفِعله وتقريره حجة على الأمة ككلام النبي ﷺ تماما.. أي أن الإمام عندهم لا يخطئ مطلقا لا في الدين ولا في الدنيا !

العصمة هنا ليست مجرد "تجنّب الذنب أو الخطأ"، بل استحالة الذنب أو الخطأ على الإمام من الأصل..

فالإمام، كما يقولون، معصوم من الخطأ والنسيان والسهو والهوى، قبل البعثة وبعدها، في القول والفعل والنية..!!

وهذه العصمة، في نظرهم، شرط للإمامة، كما أن النبوة لا تكون إلا معصومة.

أصل الفكرة: لم يَرِد في القرآن ولا في السنة أي نصّ يُثبت العصمة لأحد بعد الأنبياء.. لكن لما رفض الشيعة مبدأ خلافة الشورى، احتاجوا إلى مُبرّر إلهي يجعل لعليّ ومن بعده حقا حصريا في القيادة.. فاخترعوا فكرة أن الإمام مُنصَّب إلهيا، ومنصبه هذا يقتضي العصمة؛ لأن الله لا يولي على الناس من يخطئ.

إذن: العصمة ليست أصلا دينيا، بل نتيجة منطقية لفكرة التنصيب الإلهي.

الإشكال المنطقي: لو كانت العصمة حقا مطلقة للأئمة بعد النبي ﷺ، لزم أن: تكون أقوالهم وحيا، لأن كل معصوم يتكلم بالحق دوما.. ويكون القرآن ناقصا، لأنه لم يذكرهم ولا عصمتهم.. وتصبح حجية السنة النبوية ناقصة؛ لأنها بلا إمام معصوم يشرحها.. لكن هذا يُفضي إلى نسف النصّ الذي بنى عليه الإسلام: ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا**

﴿ فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ الأنعام ٣٨

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ المائدة ٣

فإن كان الدين لم يكتمل إلا بالإمام المعصوم، فهذا تكذيب صريح لإكمال الدين.

الإشكال العقلي: العصمة المطلقة تفترض أن المعصوم خارج الطبيعة البشرية.. لكن الشيعة لا يقولون إنه إله.. إذن: كيف يُعصم بشريّ بلا وحيٍ دائم ؟

فإما أن يُوحى إليه – فيصير نبيا، أو لا يُوحى إليه – فيبقى بشريا يجوز عليه الخطأ.

فإن قيل: هو ملهَم بالإلهام.

قلنا: الإلهام ليس حُجّة تشريعية على الناس، وإلا صار كل مدّع للإلهام معصوما !

إن فكرة عصمة الأئمة لم تظهر بصيغتها الكاملة في القرن الأول، بل تطورت تدريجيا: في عصر علي والحسن والحسين: لم يكن أحد يتحدث عن عصمتهم.

في القرن الثاني: ظهرت فكرة "التطهير" بالاستشهاد بآية الأحزاب ٣٣.

في القرن الثالث: تطورت إلى "العصمة المطلقة".

أي أن العقيدة تطورت تاريخيا مع توسع سلطة الكهنوت الإمامي.

الإشكال العقلي الثاني: تعدد العصمة.. إن ادعاء عصمة مجموعة من الأشخاص يخلق تسلسلا لا نهائيا للعصمة؛ لأن كل من يروي عن المعصوم يحتاج إلى ضامن آخر معصوم ليضمن صدقه، وهكذا دواليك..

فإما أن نقول بالعصمة المطلقة لكل سلسلة النقل، وإما أن نقبل بوجود احتمال الخطأ في الرواية، فتسقط العصمة العملية.

الولاية الدينية

تعريفها عند الشيعة: الولاية عندهم ليست مجرد "محبة" أو "نصرة" لعلي وآل البيت، بل هي الركن الأكبر للدين الذي لا يُقبل إسلامُ أحد بدونه، ويُقصد بها أن: علي بن أبي طالب وأبناءه الأئمة منصوبون من الله ولاية إلهية مطلقة على الناس في الدين والدنيا، وأن طاعتهم كطاعة الله ورسوله تماما.

أصل الفكرة: بعد وفاة النبي ﷺ ووقوع الخلاف حول الخلافة، تحول الولاء السياسي لعلي إلى عقيدة لاهوتية مع مرور الزمن.

فهم رأوا أن النبي ﷺ نصّ على علي بالخلافة في حديث غدير خم، ثم لما لم يتولَّ الحكم، قالوا: الأمة خانت الوصية، فانتقل الحق إلى أبنائه بالإرث الإلهي.

فنشأ من هذا الحق السياسي المسلوب مبدأ الولاية الإلهية المستمرة.

الإشكال المنطقي: لو كانت الولاية ركنا من أركان الدين، لكان القرآن: نصّ عليها صراحة كما نص على التوحيد والنبوة والصلاة والزكاة.. وأمر بالبيعة لعلي وأبنائه بعد النبي ﷺ.. وذكر أسماء الأئمة كما يذكر أسماء الأنبياء.

لكن.. لا شيء من ذلك وُجد !

فاضطرّ الفكر الشيعي إلى إعادة تأويل النصوص لتمرير الفكرة.

مثال التأويل: يستدلّون بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾ المائدة ٥٥

ويقولون: "الذين آمنوا" هنا هو عليّ وحده، لأنه تصدّق بخاتمه وهو راكع !!

لكن.. اللفظ جمع (الذين آمنوا)، لا مفرد..

التصدق حال الركوع لا يُمدح عليه شرعا لأنه يشغل عن الصلاة..

سياق الآية يتحدث عن الولاية العامة للمؤمنين، لا عن تعيين إمام سياسي.

إذن.. هذا التأويل قائم على افتراض مسبق بالعصمة والولاية، لا على دليل موضوعي.

فالولاية تحوّلت من علاقة دينية بين المؤمنين إلى سلطة كهنوتية فوقهم، فأصبحت الأئمة بمنزلة الأنبياء في التلقي، بل فوقهم في التطبيق، وبالتالي أُلغيت فكرة الاجتهاد الجماعي والشورى التي أقامها الإسلام.

المهدي والغيبة

يؤمن الشيعة، الاثنا عشرية، بأن الإمام الثاني عشر (مُحَمَّد بن الحسن العسكري) قد وُلِد سنة ٢٥٥هـ، ثم اختفى صغيرا بأمر من الله، وهو الآن حيّ في غيبة كبرى منذ أكثر من ١١٠٠ عام !! وسوف يظهر في آخر الزمان.

أصل فكرة الإمام الغائب: حين توفي الإمام الحسن العسكري سنة ٢٦٠هـ دون أن يُعلن عن ولد ظاهر له، وقع أتباعه في مأزق عقدي خطير:

- لأن المذهب الإمامي قائم على أن الأرض لا تخلو من إمام معصوم !
- ولأنهم لا يستطيعون إعلان نهاية السلسلة دون انهيار المذهب كله !!

فاخترع بعض خاصته رواية أن له ولدا سرّيا مختفيا، وأن الله أخفاه لحكمة، وأنه سيعود آخر الزمان..[١]

لم يوجد في التاريخ دليل على وجود ولد للحسن العسكري أصلا.. حتى كبار الشيعة في القرن الثالث اختلفوا وتنازعوا، فظهرت ١٤ فرقة شيعية بعد وفاته، كل منها تدّعي إماما مختلفا !!

معنى هذا أن (الإمام الغائب) لم يكن حقيقة موروثة، بل حلّا لاهوتيا لأزمة سياسية..

والقول بأنه "حاضر بنوره في كل مكان" ليس علميا بل رمزيا؛ لأن الحضور الميتافيزيقي لا يمكن التثبت منه بأي معيار معرفي.

لو كان غائبا لغرض من الله، فكيف تُقام عليه النيابة ويتحدث باسمه وكلاؤه في

[١] فكرة المهدي هنا لم تنشأ نبوئيا، بل كحلّ لاهوتي لأزمة واقعية

الأحكام ؟ أليس ذلك افتراء على الله بغير دليل مباشر ؟

لو كان هو محور الدين، فكيف لم يُذكر اسمه ولا غيبته في القرآن ولو مرة واحدة ؟

لاحظ تطور الفكرة: الغيبة الصغرى (٢٦٠–٣٢٩هـ): عصر "الوكلاء الأربعة"..

في البداية، خشي أتباع الحسن العسكري من انهيار المذهب بموته، فاخترع بعض خاصته فكرة أن له ابنا مستورا.. وأن هذا الابن يراسل الناس عبر وكلاء مخصوصين يسمّون (الأبواب) أو (السفراء)،،

فظهر عثمان بن سعيد العمري، وقال: أنا باب الإمام الغائب ! ثم تبعه ابنه مُحَمَّد بن عثمان، ثم الحسين بن روح، ثم السمري.. وكان كل واحد منهم يزعم أنه يتلقى توقيعات من الإمام الغائب بخطّه ! [١]

وهنا أقول: هذه واحدة من أذكى الآليات المؤسسية في تاريخ المذهب؛ لأنها حلت مشكلة مستحيلة تقريبا: كيف تستمر سلطة إمام لا يستطيع أحد الوصول إليه؟

وهكذا نشأت فكرة "الاتصال الغيبي" بين الإمام والمجتمع عبر وسطاء.. معصومين.. بالتبعية !

وكانت هذه الغيبة مرحلة تمهيدية لتثبيت الأسطورة في أذهان الناس تدريجيا.. لكن.. عندما مات النائب الرابع (السمري) سنة ٣٢٩هـ، أرسل "توقيعا" يقول فيه

---

[١] تخيل أنك من أتباع الإمام في بغداد.. جاءك رجل وقال: "أنا نائب الإمام الغائب".. ستسأله: أين الإمام؟ فيقول: لا أستطيع إظهاره.. فتقول: كيف أعرف أنك نائبه؟ فيقول: الإمام أخبرني بذلك.. فتقول: وكيف أعرف أن الإمام أخبرك؟ فيقول: لدي توقيع منه.. فتقول: وكيف أعرف أن التوقيع منه؟ وهنا نعود إلى: النائب نفسه؛ لأنه ببساطة: لا أحد – في العالم – يمكنه التثبت من صحة التوقيع..!!

انتبه: هذه ليست نكتة.. هذه – للأسف – صورة المشكلة الدائرية لفكرة النواب.. التي صدقها الشيعة !

إن الإمام الغائب لن يراسل أحدا بعد اليوم !![1] وأن الغيبة الكبرى قد بدأت، وأن على الشيعة أن ينتظروا حتى يأذن الله بظهوره في آخر الزمان !

بهذه الرسالة، اكتملت العقيدة الاثني عشرية بصورتها المعروفة اليوم.. والغيبة الكبرى حوّلت الفعل السياسي إلى انتظار أبدي، وأوجدت طبقة من "الوسطاء" (المراجع والفقهاء).. الذين صاروا ينوبون عن الإمام الغائب في الحكم والفتوى، ما أوجد نظاما دينيا هرميا..

---

[1] تقول الرواية الاثنا عشرية إن الإمام أخبره بانتهاء النيابة الخاصة، وأنه لن يكون بعده نائب خاص.

وهنا أُغلقت القناة..! وهنا المفارقة الكبرى: في البداية كان البناء: الإمام ضرورة لأن الدين لا يمكن أن يخلو من حجة معصومة.. ثم أصبح: الحجة موجود لكنه غائب.. ثم: لا أحد يستطيع الاتصال به اتصالا خاصا.. ثم: الفقهاء يستنبطون الأحكام ويقومون بوظائف دينية نيابة عنه – بتفاوت حسب النظريات الفقهية والسياسية..!

لاحظ التحول: من "الإمام المرجع المباشر".. إلى: "الإمام الغائب".. ثم إلى: "الفقهاء الذين يديرون الحياة الدينية في عصر غيبته".. وهذا التحول ليس تفصيلا صغيرا، إنه إعادة تشكيل للوظيفة التي قامت عليها الإمامة أصلا.. وهنا سأضع سؤالا خطيرا جدا: إذا كان الإمام المعصوم: حجة الله على الخلق، ومرجعهم في الدين، ووجوده ضرورة لحفظ الدين، فلماذا احتاجت الجماعة بعد الغيبة الكبرى إلى بناء منظومة معرفية كاملة تعتمد على: الحديث.. الراوي.. علم الرجال.. الفقيه.. الاجتهاد.. المرجع؟

أليس هذا – من حيث البنية – يعيد إلينا شيئا من العالم الذي كان يفترض أن الإمامة جاءت لتجنبه؟

تأمل معي: الشيعة تقول: لا بد من إمام معصوم حتى لا يضل الناس.. ثم تحدث الغيبة، فيظهر: علم الرجال.. علم الحديث.. علم الأصول.. الاجتهاد.. المرجعية.. التقليد...

أي أن الناس أصبحوا مضطرين إلى التعامل مع: علماء غير معصومين؛ لكي يصلوا إلى ما يُفترض أن الإمام المعصوم كان سيبينه لهم..! فإذا كان غير المعصومين قادرين على استخراج الأحكام من القرآن والسنة وروايات الأئمة بما يكفي للحياة الدينية، فلماذا كانت العصمة ضرورية أصلا؟!

أما إذا قيل: "لا يستطيعون الوصول إلى الحقيقة كاملة".. فهذا يطرح سؤالا آخر: فكيف تكون الغيبة رحمة وهداية للأمة إذا كانت تحرمها من المرجع المعصوم الذي لا يخطئ؟

أي أن الغيبة كانت حدثا مؤسِّسا للسلطة الدينية أكثر من كونها واقعة غيبية.[1]

بهذا التحول، أُعطي رجال الدين الشيعة سلطة مطلقة بوصفهم ممثلين عن الإمام الغائب، فنشأ نظام الولاية الدينية الذي تطور لاحقا إلى ولاية الفقيه في إيران.

المفارقة: إنهم ينتظرون رجلا لم يروه، ليحلّ مشاكل خلقها أناس يرؤنهم كل يوم !

هذا مثال على تجميد العقل باسم الإيمان.. حين تغدو الفكرة عقيدة جامدة، فإنها تسجن الإنسان في زمن لم يأتِ بعد..

وتحوّل التاريخ إلى انتظار أبديّ للمعجزة.

والإيمان بالمهدي الغائب تحوّل إلى محور لاهوتي يمنح الفقهاء سلطة النيابة عن الإمام الغائب، أي أنه الركيزة التي تستمد منها المؤسسة الشيعية الحديثة وجودها الشرعي.

وقد قام العقل – الترقيعي – الشيعي بتوظيف أحاديث الدجال لتبرير غيبة الإمام !

لكن أحاديث الدجال ثابتة بالأسانيد الصحيحة – عندنا وعندهم – بينما إمامهم الغائب ليس فيه رواية، ولا رآه أحد..!

إمكان الغيبة شيء، وإثبات أن شخصا بعينه هو الإمام الغائب شيء آخر.

وهذا ما تعجز الشيعة – تمام العجز – عن إثباته.

وهنا يظهر "الاحتياج إلى البرهان".. لنفرض أننا أثبتنا: الله قادر على إبقاء إنسان

---

[1] لم تزل تلك الخرافة هي "صندوق باندورا" الذي تخرج منه شرور الرغبة في التسلط على عوام الشيعة ومُستغفَليهم.. كالبهائية: التي قدمت نفسها للشيعة باعتبار أن "علي الشيرازي" مؤسس الديانة هو "باب" المهدي المنتظر (الإمام الغائب) ! والمتحدث باسمه !! وهكذا غيرها من الدعوات التي تتجدد من حين لآخر.

وهنا تكمن "المفارقة الساخرة": حين تجعل حفظ الدين متوقفا على وجود شخص معصوم بعد خاتم الأنبياء، فإنك لا تكون قد أغلقت باب النبوة؛ بل قد تكون صنعت له ممرا سريا تحت اسم آخر.

حيًا قرونا.. هذا لا يثبت: أن مُحَمَّد بن الحسن موجود حيا.

إذن أمامنا ثلاث حلقات: الإمكان.. الوقوع.. تعيين الشخص

والخلط بينها خطأ منطقي.

كما أن التشابه في الغيبة لا يُسوِّي بين المعنى والغاية.. فلو اختفى طفل عن أمه، واختفى لصٌّ عن الشرطة، فهل تستوي الغيبتان !

نعم، الله قادر على أن يطيل عمر الإمام، لكن القدرة الإلهية لا تعني الوقوع والتحقق.. فالله قادر أن يجعل لنا جناحين، فلماذا لا نطير إلى الكعبة كل جمعة ؟

القدرة شيء، والحكمة شيء آخر..

وليس من الحكمة في شيء أن يُبقي الله إماما حيّا **بلا رسالة ولا أثر** لألف عام.

لكنها أزمة العقل.

التقية

تعريفها عند الشيعة: إظهار خلاف ما يُبطن المؤمن من اعتقاد أو قول أو فعل، إذا خاف الضرر على نفسه أو ماله أو عرضه أو دينه.

لكنها في الفكر الشيعي ليست رخصة مؤقتة كما في الفقه السني، بل أصل من أصول المذهب، حتى قالوا: «التقية ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له.»

الجذر التاريخي للفكرة: في القرون الأولى للإسلام، كان الشيعة أقلية تعرّضت لاضطهاد سياسي بعد كربلاء، فاستُعملت التقية وسيلة للبقاء والتخفي.

لكنها مع مرور الزمن تحوّلت من وسيلة ظرفية إلى عقيدة دائمة، ثم إلى منهج في القول والفعل والدين كله.. فلم تَعُد التقية مجرد رخصة من الخوف، بل أصبحت أداة لتبرير التناقض والازدواجية في الخطاب والموقف.

الإشكال المنطقي: إذا كان الحق يُخفى بالتقية، فكيف يُعرف الحق أصلا ؟!

وأي نصّ أو رواية نأخذها من كتبهم إن كانت قد قيلت تقية ؟!

فبهذا تصبح المعرفة الدينية عندهم غير قابلة للتحقق؛ لأن كل قول يمكن أن يُقال إنه تقية؛ وبالتالي: لا يمكن التمييز بين.. العقيدة الحقيقية.. والعقيدة المعلنة !!

أي أن التقية تهدم إمكان اليقين نفسه داخل المذهب.

مثال واقعي: تجد بعض علماء الشيعة في الحوار مع السنّة يقولون: " نحن نحب الصحابة ولا نسبهم". بينما في مجالسهم الخاصة يُصرّحون بسبّهم والطعن فيهم. وحين تُواجههم بالتناقض يقولون: كنا نتّقي !

إذن التقية لم تَعُد دفاعا عن النفس، بل وسيلة لإخفاء الوجه الحقيقي للمذهب عند

الحاجة.

الأثر النفسي والمعرفي: انعدام الثقة في صدق القول.

ازدواجية الخطاب بين العلن والسر.

ضبابية الموقف في القضايا الكبرى (كالنصوص، والولاء، والبراءة).

ولهذا السبب، يستحيل بناء حوار علمي صادق دون إبطال التقية أولا، فلا معنى للحوار إن لم يُصرّح كل طرف بما يعتقده فعلا.

البداء

تعريفه عند الشيعة: أن يُظهر الله أمرا في الوجود على خلاف ما كان ظاهرا للناس أو للأنبياء، بعد أن لم يكن في علمهم أنه سيكون كذلك.

بمعنى آخر: أن الله – تعالى وتقدس عن هذا الكفر البواح – يبدو له.. أمر جديد فيُغيّر ما سبق !! أي يُظهر خلاف.. ما كان يبدو.. في البداية.

ويستدلّون بقولهم: ما بَدَا لله في شيء كما بَدَا له في إسماعيل.

أي حين أمر إبراهيم بذبحه ثم رفع الأمر.

خطورة المفهوم: البداء في ظاهره **تغيير في علم الله**، أي أنه ينسب الجهل أو التردّد إلى الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرا.

ولذلك اعتبر علماء أهل السنة أن القول بالبداء على ظاهره كفر صريح؛ لأنه يناقض قوله تعالى: ﴿ **مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ** ﴾ ق ٢٩

﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ الملك ١٤

كيف نشأت الفكرة ؟

البداء لم يكن موجودا في التشيع الأول، بل وُلد لتبرير فشل التوقعات النبوئية للأئمة..!!

فعندما كان الأئمة أو أصحابهم يتنبّأون بحدث سياسي أو بزمان ظهور المهدي، ثم لا يقع ما وعدوا به، كانوا يقولون: بدا لله في الأمر !

أي أن الله غيّر خطته بعد أن كان قد أوحى بخلافها.

وهكذا تحولت عقيدة "عصمة الإمام" إلى مأزق لاهوتي، فاحتاجوا إلى.. البداء..

كصمام أمان لتفسير أخطاء الإمام دون المساس بعصمته !

الإشكال المنطقي: إذا كان علم الله مطلقا، فلا يتبدّل.. فكل تغيير في القدر معلومٌ عنده أزلا، فلا يُسمّى.. بداء.

إذا بدا لله شيء جديد، فهذا يعني أن **شيئا لم يكن في علمه**، وهذا باطل عقلا ونقلا.

إذا كان البداء مجرد إظهار للناس لا تغيرا في العلم، فلماذا لم يُسمّوه (إظهار القدر) لماذا استخدموا لفظا يوحي بالنقص ؟!

إذن هم يضطرّون لتأويل المعنى بعد أن أوقعهم اللفظ في التناقض.

البداء وُضع لتبرير فشل التنبؤات، لا لتفسير صفات الله.. وهو يضرب كمال العلم الإلهي ويجعل الله – تعالى – في موضع المتردّد أو المراجع؛ ولذلك قال العلماء: البداء في مذهبهم كقول اليهود: يد الله مغلولة.

فهو يختصر أزمة التشيع كلّها: **حين تتضارب العقائد مع الوقائع، يُغيَّر المعنى بدل الاعتراف بالخطأ.**

التناقض الداخلي: من جهة: يقولون إن الأئمة يعلمون الغيب، ومن جهة أخرى: يقولون إن الله قد يبدو له أمر جديد !!

فكيف يعلم الإمام الغيب إذا كان الله نفسه – بزعمهم – لم يكن قد أظهر الغيب بعد ؟

أي أن.. البداء.. يهدم العصمة من أساسها.

الإمامة كبديل عن النبوة

الإمامة، في نظر الشيعة، ليست مجرد منصب سياسي.. بل هي استمرار للنبوة في جوهرها بعد ختم الوحي.. فهم يرون أن الإمام: (منصوص عليه من الله)، (معصوم)، (يعلم الغيب)، (حجة الله على خلقه)، (لا تقوم الحجة إلا بوجوده في كل زمان).. أي أن الله لا يترك الأرض لحظة بلا إمام معصوم، فهو عندهم واسطة بين الله والناس كما كان النبي من قبل !

هنا يظهر التناقض الخطير: الإسلام يقرر أن النبوة خُتمت، **بينما التشيع يعيد كل وظائف النبوة في صورة الإمام !!**

النبي يُبلّغ عن الله.. الإمام عندهم يُفسّر كلام الله تفسيرا معصوما لا يجوز مخالفته.

النبي يتصف بالعصمة.. الإمام معصوم.

النبي مؤيَّد بالعلم الإلهي.. الإمام يعلم الغيب.

النبي حجة الله على الخلق.. الإمام حجة الله في كل زمان.

إذن الفرق الوحيد.. لفظي.. فقط، يتمثل في حذف لفظ "نبي" وإبقاء المضمون نفسه تحت مسمى "إمام" !

الإشكال العقلي: المنطق يقتضي أنه إذا كانت الإمامة أعظم أصول الدين بعد النبوة، فمن الضروري عقلا أن تكون أوضح من كثير من الفروع.. فالعقل يقضي بأن: الحاجة العامة تستلزم البيان العام.. والأمر الأعظم يحتاج إلى ظهور أعظم.

فإذا كانت الأمة تعرف تفاصيل الطهارة والصلاة، ثم يقال إن أصل الإمامة بقي خفيا مختلفا فيه، فإن هذا يثير إشكالا عقليا قبل أن يكون إشكالا نقليا.

إشكال العصمة: العصمة في الإسلام خُصّ بها الأنبياء فيما يُوحى إليهم، أما الأئمة فهم بشر بعد النبي ﷺ.. لكن الشيعة يجعلون العصمة أساسا في الإمامة، حتى قالوا: من أنكر إمامة أحد الأئمة كمن أنكر النبوة.

وهذا التصوّر يجعل الإمام شريكا للأنبياء في مرتبتهم بل فوقهم أحيانا !

تناقض الإمامة مع القرآن: القرآن جعل الهداية عامة لكل من اتبع الرسول ﷺ، لا حكرا على نسل مخصوص.. ﴿ **قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى** ﴾ الأنعام ٧١

﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ الحجرات ١٣

لم يُنصّ على إمام بعد النبي ﷺ، بل ترك الأمر شورى بين المؤمنين.. ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** ﴾ الشورى ٣٨

الإمامة الشيعية هي إسقاط عاطفي على الحاضر السياسي: لما فُقدت السلطة من آل البيت، وحكم الأمويون والعباسيون، أراد الشيعة أن يقولوا: السلطة الحقيقية ليست بيدكم، بل بيد أئمتنا الذين نصبهم الله !

فكانت الإمامة تعويضا عن الحكم المفقود.

لكن النتيجة أصبحت أن الإمامة عند الشيعة..[1] نبوة مستترة.

---

[1] هناك سؤال يبدو بسيطا، لكنه في الحقيقة يفصل بين عالمين: هل الإمامة أصل من أصول الدين أم خلافة سياسية؟ إذ لو كانت الإمامة أصلا إلهيا فإننا نتوقع أن نجد لها خصائص تشبه أصول الدين الكبرى، فالتوحيد مثلا ليس رأيا سياسيا، والنبوة ليست آلية لاختيار الحاكم، والصلاة ليست اتفاقا إداريا.. إذن لو كانت الإمامة من هذا النوع، فينبغي أن يكون لدينا: تشريع إلهي.. نص واضح.. تعيين محدد.. وجوب اعتقاد.. أثر ديني على النجاة والهلاك، وهذا يضع الاثني عشرية أمام عبء إثبات كبير: ليس المطلوب إثبات أن عليًا كان أفضل أو أحق بالخلافة فقط؛ بل إثبات أن الله شرّع أصلا منصبا إلهيا اسمه الإمامة.

وبذلك يصبح الإسلام بعد النبي ﷺ – في نظرهم – غير مكتمل إلا بالإمام.

أي أن ختم النبوة عندهم لفظي لا فعلي؛ ولهذا قال بعض علمائهم صراحة: لولا الإمام ما عُرف الله.. فجعلوا الإمام واسطة معرفية ووجودية بين الله والخلق، وهذا هو جوهر الانحراف الذي مهّد لاحقا للغلو والفكر الباطني الذي جعل الإلهية في علي ﷺ والأئمة من بعده، حتى جعلها بعضهم في الحاكم بأمر الله !

وهو الخلاف الذي يهدم فكرة الإمامة من الداخل.. **بالانشطار المتسلسل**:

بعد مقتل الحسين، بدأ السؤال: من هو الإمام بعده ؟

قال فريق: الإمامة في علي زين العابدين.. وهم نواة الإمامية.

وقال آخرون: الإمام هو مُحَمَّد بن الحنفية.. وهؤلاء هم الكيسانية.. وقالوا إنه لم يمت بل غاب في جبال رضوى، وسيعود في آخر الزمان.. فكانت هذه أول مرة يُعلن فيها عن الغيبة والرجعة التي سيبني عليها الاثنا عشرية لاحقا.

وبعد وفاة علي زين العابدين، انقسم أتباعه:

فريق قال بإمامة ابنه مُحَمَّد الباقر.. نشأت الفرقة الباقرية..

فريق آخر قال إن الإمامة توقفت هنا، لأن عليّا لم يوصِ نصا..

وهكذا بدأ مبدأ "الوصية بالنص" يُستخدم كمعيار للإمامة، وأي غموض في النص يؤدي إلى انقسام.

ثم جعفر الصادق (ت ١٤٨هـ) كان له أبناء كُثُر، منهم إسماعيل وموسى الكاظم.. مات إسماعيل في حياة أبيه، فادعى بعضهم أنه لم يمت بل «غاب» وسيعود، وسمّوا أنفسهم الإسماعيلية.

وقال آخرون: بل الإمام بعده هو موسى الكاظم، فصاروا الكاظمية ثم الاثنا عشرية.

لكن.. بعد وفاة موسى الكاظم: انقسمت الجماعة مجددا:

قال بعضهم: مات حقا وخلف ابنه علي الرضا.

وقال آخرون: لم يمت، بل غاب وسيرجع، وسمّوا أنفسهم «الواقفية».

وبعد موت الإمام الحادي عشر (الحسن العسكري):

قال فريق: لم يخلف ولدا أصلا، فانتهت الإمامة، وهم الواقفية الجدد.

وقال آخرون: خلف ولدا اسمه مُحَمَّد بن الحسن، ودخل سرداب واختفى.. وهؤلاء هم الاثنا عشرية، الذين يؤمنون أن إمامهم حيّ منذ القرن الثالث الهجري.

وهكذا، كلما مات إمام، أو اختلف الناس في ابنه، انقسمت الجماعة إلى طوائف جديدة.. فكان هذا الانقسام بحد ذاته نقض ذاتي لفكرة النصّ.

حيث الزيدية: يرون الإمامة في آل فاطمة.. بالشورى.

الإمامية الاثنا عشرية: يعتقدون بعصمة الأئمة – من فرع الحسين بن عليّ – الاثني عشر وغَيبة الإمام الأخير.

الإسماعيلية: يؤمنون بإمامة إسماعيل بن جعفر، وطوروا نظام الدعوة الباطنية.

النصيرية والدروز: فروع غالية خرجت عن الإسلام ذاته إلى تأليه الأئمة.

هنا نلاحظ أن الأزمة السياسية تحولت إلى أسطورة دينية..

كما أن كل اختلاف في وراثة الإمامة تحوّل إلى فرقة دينية جديدة؛ لأن الفكرة نفسها (الإمامة الإلهية) لا تسمح بالاجتهاد أو التعدد، فكل اختلاف فيها يؤدي

حتما إلى تكفير الآخر.

وهكذا تولّد النزاع الذي تأسس أصلا على غياب النص بالوصية ! فإن كانت الإمامة بالنصّ الإلهي، فلماذا اختلفوا على الأئمة ؟ إذ لو كان النصّ واضحا لما انقسموا إلى زيدية وإسماعيلية واثني عشرية ونصيرية ودروز وعشرات الفِرق الأخرى،، لقد أصبحت هذه الفِرَق تبرهن – عمليا – على بطلان الأساس الذي بُني عليه وانطلق منه التشيّع المذهبي.. حيث تفرعوا وتناحروا لأن مبدأ (النصّ الإلهي) للإمام أدى منطقيا إلى مأزق متكرر: مَن هو الإمام بعد موت كل إمام ؟[1]

---

[1] موت الإمام.. هذه كانت آلة "تفريخ" المذاهب الشيعية؛ فكلما مات رجل من آل البيت، ظهر السؤال: من الإمام بعده؟ فتنقسم الجماعة..!

وهذا الانقسام لم يكن مجرد اختلاف سياسي، بل أصبح: اختلافا في تعيين حامل الوحي الباطني والمرجع الإلهي.. ومن هنا ظهرت جماعات متعددة: الكيسانية.. الزيدية.. الإمامية.. الإسماعيلية.. الغلاة.

الأزمة الثانية: إذا قيل عن شخص إنه الإمام، فماذا لو مات قبل توليه الإمامة؟ وهنا تظهر واحدة من أعجب الآليات في التاريخ العقدي.. بدل أن تقول الجماعة: إذن أخطأنا في التعيين.. يمكن أن تقول: بل الإمام لم يمت.. ومن هنا تصبح الغَيبة حلا لأزمة فشل التعيين..!

وهذه ليست مجرد نظرية فلسفية؛ ففي تاريخ الإسماعيلية المبكرة، مثلا، ظهرت جماعة أنكرت موت إسماعيل بن جعفر وقالت إنه المهدي المنتظر، بينما قالت جماعة أخرى بموته وانتقلت بالإمامة إلى ابنه مُحَمَّد بن إسماعيل.

وهكذا يصبح لدينا قانون تاريخي: كلما ماتت الشخصية التي يجب أن تستمر، يمكن إنقاذ النظرية بافتراض غيبتها.. وهذا القانون سيصل لاحقا إلى ذروته في الاثني عشرية مع غيبة الإمام الثاني عشر.

الأزمة الثالثة: إذا كان الإمام معصوما، فماذا عن النص؟ هنا تبدأ الباطنية..! إذا قيل: الإمام معصوم، وعنده العلم الحقيقي.. فالسؤال: ماذا نفعل بالنص الذي يبدو مخالفا لما يقوله الإمام؟

الحل الباطني: النص له ظاهر وباطن.. العامة تأخذ الظاهر، أما الإمام وأتباعه فيعرفون الباطن..!

وهنا يتحول الإمام من مجرد قائد إلى مفتاح لفك شفرة الوحي.

وبدأت الانقسامات تتوالى كالدومينو..

وأصبح كل خلاف في تحديد الإمام الجديد يؤدي إلى انشقاق جديد..

حتى صار لكل شيعة إمامها..

ولكل إمام أتباعه..

ولكل أتباع تفسيرهم الخاص للدين نفسه..

وصدق الله..

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾

الأنعام ١٥٩

الولاية التكوينية (إدارة الكون)

في البداية، كانت الولاية بمعنى القيادة الدينية والسياسية، لكن بعد الغيبة الكبرى، تحولت إلى ولاية كونية شاملة.. أي أن الإمام لم يعد (حاكما في الناس)، بل صار (وسيطا في الوجود)؛ ولهذا قال المجلسي في بحار الأنوار: إنهم – عليهم السلام – الأسباب التي بها ينزل الغيث، وتدور الأفلاك، وتُمسك السماوات والأرض.

فهي تعني أن الأئمة يمتلكون قدرة إلهية بإذن الله على التصرف في الكون، كتحريك الجماد، وتدبير شؤون الخلق.. فيُحيون ويميتون، ويعلمون ما كان وما سيكون، لكن.. إذا كان الإمام يدبّر الكون، فهل الكون بحاجة إلى الله أم إلى الإمام ؟ إن هذا يؤدي منطقيا إلى تعدد الفاعل المطلق، وهو نقض للتوحيد.

وإذا كان يعلم كل شيء، فهل يحتاج إلى الوحي ؟

لو كان الإمام يدبّر أفعال العباد، فأين اختيار الإنسان ؟ هل طاعتي ومعصيتي من تدبيره ؟ إن قلنا نعم، سقط التكليف. وإن قلنا لا، بطلت الولاية التكوينية نفسها.

كل سؤال من هذه يفتح تناقضا وجوديا لا يمكن ردمه إلا بالقول بأن الإمام إله مصغّر، وهو ما يتنافى مع جوهر التوحيد القرآني.

فكرة الولاية التكوينية دخلت إلى التشيّع من الفكر الفارسي والهندي واليوناني، حيث يُصوَّر "الإنسان الكامل" أو "القديس" على أنه واسطة بين الإله والعالم.. فانتقلت هذه الصورة إلى الثقافة الإسلامية بعد القرن الثاني الهجري، وأُلبست ثوبا إسلاميا باسم "الإمام المعصوم".. وبعض نصوصهم تقول: إن للأئمة مقاما لا يبلغه ملك مقرّب ولا نبي مرسل. (الكافي ج١صـ٢٧٠)

إذن.. الولاية الكونية لا دليل عليها من القرآن ولا السنة..

ولم يَدّعِ أيّ من الأئمة لأنفسهم هذه الولاية، ولم تُنقل عن عليّ أو الحسين أقوال توحي بعلمهم بالغيب أو تصرفهم في الكون..

بل كانوا دائما يقولون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وهكذا.. فإن هذه المفاهيم التي بنى عليها الشيعة دينهم: الإمامة، الولاية، العصمة، التقية، البداء، المهدي، الغيبة، الولاية التكوينية.. هي – كما رأينا – مفتراة على الدين..

فهل يمكن أن يكون دين الله مبنيا على مفاهيم لا يثبت واحد منها بالقرآن الصريح ولا بالسنة الصحيحة ؟!

﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾

الأنعام ١١٤

القيمة العلمية لروايات كتب الحديث الشيعية

الشيعة يتبنّون مبدأ: "الحديث الصحيح: ما صحّ عن المعصوم"

لكنهم في الواقع لا يملكون إسنادا واحدا متصلا معتبرا يوصل إلى الإمام المعصوم نفسه إلا نادرا جدّا.. ومع ذلك.. فهذه الروايات (النادرة جدا) لا تتضمن حديثا – واحدا – يثبت أيّا من المفاهيم التي خالفوا فيها أهل السنة !

وهنا تظهر الورطة.. التي منها خرجت العبارة التي تقول: ليس لدى الشيعة حديث صحيح.

لكن.. المأزق الحقيقي.. ليس فقط في "عدم وجود حديث صحيح" عند الشيعة، بل في معيار التصحيح نفسه.

عند أهل السنة.. المنهج دقيق، متماسك، له أصول صلبة: الجرح والتعديل، تواتر الروايات، ضبط الرجال... إلخ.

فإذا طبّقتَ هذا المنهج على الروايات الشيعية، ستجد أكثرها يسقط، والنادر جدا قد ينجو.. وهذا (النادر جدا) ليس فيه حديث – واحد – يثبت عقائدهم؛ ولذلك تجدهم في كل مسألة كبرى: الإمامة، العصمة، المتعة، الرجعة، البداء...

يستندون إلى روايات لو مرّت بسوق المحدثين لخرجت تُمسك رأسها من شدة الضرب.

المشكلة الجذرية تكمن في "بنية المذهب" نفسه.. فالمذهب قام على "روايات المعصومين"، لكنه فقد الأسانيد المتصلة إليهم، فاضطرّ أن يبني هوية دينية كاملة... فوق أرض رخوة من الروايات المتعارضة.

فالمشكلة إذن ليست ندرة الصحيح فقط، بل إن عقائد المذهب قائمة على الروايات الأضعف سندا والأكثر اضطرابا.. والتناقض الأكبر أنهم يعتمدون في نقل الدين... على رواة ضعّفهم علماؤهم أنفسهم.

فالصحيح القابل للاحتجاج الصارم.. قليل..

والصحيح الذي يصلح للعقائد الكبرى.. أقل من القليل..

والصحيح الذي يُثبت أصول المذهب – كالعصمة، والرجعة، والمهدي المختفي، والمتعة، والولاية التكوينية – مطعون في أسانيده عندهم قبل غيرهم..!

وإذا قام عالم منهم بانتقاد تلك الروايات قامت عليه الدنيا ولم تقعد.. هذا إن لم يقوموا بسجنه لمنعه من الكلام؛ كما حدث مع الشيخ "كمال الحيدي" الذي استفدت أنا نفسي وتعلمت منه الكثير..

لماذا كل هذا الاضطراب...؟

لأن البناء نفسه في أصله اعتمد على مشكلات قاتلة.. كغياب الإسناد المتصل.. فكل طريق ينتهي إلى الإمام المعصوم تقف فيه سلسلة طويلة من الرواة المجهولين أو المختلف عليهم.

والمشكلة الأكبر أنه لا معيار – موحد – للتصحيح عندهم..!!

عند أهل السنة: "الرواية الصحيحة" لها قواعد ثابتة.

لكن.. عند الشيعة.. كل عالم يضع معيارا للتصحيح، ثم يأتي من بعده فينسفه، ثم يأتي ثالث فينسف الاثنين معا.

لقد بدأ كل شيء بنبرة حزن... ثم تحوّلت النبرة إلى شعار... ثم إلى سلاح... ثم

إلى "مذهب" يقوم على: جعل الحسين مركز الوجود، وجعل قتله محور التاريخ، وجعل الحزن عليه مفتاح النجاة.

فصاروا يرفعون الحسين فوق مقام الأنبياء، ويجعلون الأرض لا تستقر إلا بدمائه، والسماء تَصرُخُ عند مقتله، ويُكتب كل شيء في اللوح المحفوظ لأجله، وكأن التاريخ كله خُلق ليُثبت مأساة كربلاء.

لكن هذا كلّه لا يستقيم مع: القرآن، ولا السيرة النبوية، ولا قواعد العقل، ولا منهج الدين.

ومن هنا بدأت السلسلة الخفية: لكي تستقيم الصورة كاملة... يجب أن يكون هناك إمام قبل الحسين، وإمام بعد الحسين، وسلالة مصطفاة، ونصوص، ووصايا، وعلوم باطنية...

وهكذا تولدت الطبقة السميكة من الروايات التي تملأ كتب الشيعة.. روايات لم تُكتب لتُخبر الحقيقة، بل لتُشبع الحاجة النفسية لدى الجمهور..

والأحاديث التي تُقيم هذه العقائد جاءت كالطيور المرهقة، تسقط قبل أن تبلغ سقف الاحتجاج.

تحليل الأسس العقلية والنقلية التي بنوا عليها تلك المفاهيم

العصمة.. لأنها أصل الولاية، إذ بدون عصمة لا يمكن أن تُقبل ولاية مطلقة.

الأساس الأول: الاستدلال النقلي (الآيات والروايات)..

يستدلّ الشيعة بعدة نصوص قرآنية على العصمة، منها قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾ الأحزاب ٣٣

ويقولون: إن «أهل البيت» المقصودين هنا هم علي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من نسلهم فقط، وأن تطهيرهم تطهيرا تامّا يعني عصمتهم من الذنب والخطأ.. لكن عند التحقيق، نجد أن:

السياق كله من أول الآية يتحدث عن نساء النبي ﷺ، وليس عن علي أو الحسن أو الحسين.. والضمائر في (عنكم) و(يطهّركم) التفات لغوي معروف في العربية، لا يعني بالضرورة تبدل المخاطَب.. ولو كان التطهير يعني العصمة، لكانت نساء النبي معصومات أيضا، لأنهن داخلات في الخطاب القرآني الأصيل.

الأساس الثاني: الاستدلال العقلي

يقولون: الإمام يجب أن يكون معصوما لأنه حجة الله على الناس، والحجة لا تكون حجة إلا إذا كانت معصومة من الخطأ، وإلا لجاز أن يضلّ الناس بأمره.

لكن هذا القياس العقلي فيه مغالطة: لأن الحجة الإلهية المطلقة هي الكتاب والسنة الثابتة عن النبي ﷺ، لا الأشخاص بعده.

كما أن الأنبياء أنفسهم ليسوا فوق التكليف أو المحاسبة، بل يخطئون في اجتهادهم أحيانا (كما في قصة آدم، ويونس، وداود)، ولم يقل أحد إنهم خرجوا من بشريتهم.

الأساس الثالث: التأويل الفلسفي

تأثر الفكر الإمامي في العصور اللاحقة بالفلسفة اليونانية والأفلاطونية الجديدة، فانتقل مفهوم «النور المحض» و«العقل الفعّال» إلى فكرة «الإمام النوراني» الذي يصدر عنه الكون، وهي التي تحولت لاحقا إلى ما يُعرف بـ الولاية التكوينية.

أي أن الإمام عندهم صار واسطة فيض الوجود، كما في الفلسفة الإشراقية والسهروردية، ولذلك قال بعض علمائهم: لولا الإمام لساخت الأرض بأهلها.

وهذا منقول من مفهوم فلسفي لا من وحيٍ إلهي.

تفكيك أول أساس اعتمد عليه الشيعة في إثبات العصمة: آية التطهير.

أولا: نص الآية وسياقها الكامل: ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ، وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾

الأحزاب: ٣٣

الآية جاءت وسط مقطع يخاطب نساء النبي ﷺ خاصة، من أول قوله: ﴿ **يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء...** ﴾ إلى قوله ﴿ **وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ...** ﴾ أي أن السياق كله واحد ومترابط، والضمائر المؤنثة متتابعة حتى لحظة الالتفات في ﴿ **عنكم** ﴾.

ثانيا: الالتفات في اللغة العربية

الالتفات ظاهرة بلاغية معروفة في العربية، وهي الانتقال من ضمير إلى آخر لغرض بلاغي، كأن تنتقل من المؤنث إلى المذكر، أو من الغائب إلى المخاطب، مثل قوله

تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ (انتقل من (كنتم) إلى (بهم).. فليس الالتفات دليلا على تبدل المخاطَب، بل هو من بديع الأسلوب العربي.

إذن قوله تعالى: ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ ﴾ لا يعني أنه خرج من خطاب نساء النبي، بل هو التفات لغرض التشريف أو التوكيد.

ثالثا: معنى (الرجس) و(التطهير):

الرجس في لغة العرب هو الإثم أو الذنب أو الشرك أو ما يُستقذر من المعاني.

والتطهير هنا لا يُراد به العصمة المطلقة، بل هو تنزيه عن المعاصي الظاهرة وتهذيب الباطن بالتقوى.. كما قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ الشمس ٩-١٠

أي طهّرها بالتقوى، لا بالعصمة الجبرية.

فمعنى الآية ببساطة: إنما يريد الله أن يُطهّركنّ يا نساء النبي من الرجس، بأن أمركنّ بالطاعة والعبادة.

رابعا: الحديث الذي يستشهدون به (حديث الكساء)

يقول الشيعة إن النبي ﷺ جمع عليّا وفاطمة والحسن والحسين تحت كساء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

لكن الحديث نفسه لا يدل على العصمة: لأن النبي ﷺ دعا لهم بالتطهير، ولم يُخبر بأنه تحقق.. ولأن لفظ (أهل بيتي) في لسان العرب أوسع من هؤلاء الأربعة، فيدخل فيه أزواجه بنص القرآن نفسه في سورة الأحزاب.. والحديث لا يُخرج غيرهم، بل

يخصّهم بمزيد فضل فقط.

إذن النتيجة المنهجية: آية التطهير لا تدل على العصمة لا لغة ولا سياقا ولا دلالة، بل تدل على التكليف بالطهارة لا التوصيف بالعصمة.

تفكيك الأساس العقلي الذي استدلوا به على العصمة

حجة الشيعة العقلية: يقولون: الإمام هو حجة الله على الخلق، والحجة لا تكون حجة إلا إذا كانت معصومة من الخطأ؛ لأن الخطأ يُسقط الحجة، ولو جاز عليه الخطأ لبطلت طاعته، ولما جاز لله أن يأمر باتباعه.

إذن هم يبنون الفكرة على قياس منطقيّ صوريّ:

الإمام حجة.

الحجة لا تكون إلا معصومة.

إذن الإمام معصوم.

لكن هذا القياس ظاهره متين، وباطنه مضطرب من ثلاث جهات: الخلل في التعريف، والقياس، والنتيجة.

أولا: الخلل في تعريف (الحجة): الحجة عندهم تعني «من يحتج الله به على عباده». لكن القرآن يُعرّف الحجة بأنها البيان والدليل لا الشخص: ﴿ **لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴾ النساء: ١٦٥

أي أن الحجة هي الرسالة لا ذات الرسول.. فالأنبياء أنفسهم لم يكونوا حجة بذواتهم، بل بما أوحى الله إليهم من كتاب وهُدى.. فإذا كان النبي ﷺ نفسه لا يُتبع إلا في حدود الوحي، فكيف يُجعل الإمام المعصوم حجة في ذاته بعد ختم النبوة ؟!

ثانيا: الخلل في القياس: القياس الذي بنوه يقوم على أن "الخطأ يُسقط الحجة"، لكن الله لم يشترط العصمة المطلقة حتى في الرسل، بل قال عن بعضهم:

﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ طه ١٢١

﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ ص ٢٤

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ الأنبياء ٨٧

أي أن الخطأ لا يُسقط النبوة ولا يُبطل الرسالة، بل يظل النبي ﷺ حجةً على قومه بوحيه وصدق بلاغه، لا بعصمته المطلقة من السهو أو الاجتهاد.

فإذا جاز الخطأ الجزئي على نبي، فمن باب أولى أن لا تُشترط العصمة المطلقة في إمام بعده.

ثالثا: الخلل في النتيجة: حتى لو سلّمنا جدلا بأن "الحجة يجب أن تكون معصومة"، فإن النتيجة لا تثبت أن الإمام الفلاني معصوم إلا بدليل مستقل على أنه هو (الحجة).. أي أن البرهان دائري: يريدون إثبات الإمامة بالعصمة، ثم العصمة بالإمامة !! وهذا يُسمى في المنطق الدور الباطل.

الخلاصة العقلية: الحجة في الدين هي الوحي الثابت لا الشخص، والعصمة المطلقة لم تثبت حتى للأنبياء إلا في التبليغ لا في الذات، ومن ثم لا وجه لاشتراطها في الأئمة، ولا لادعاء امتلاكهم علما لدنيًا يمنع الخطأ.

تفكيك الأساس الفلسفي (أي انتقال فكرة العصمة إلى الولاية التكوينية من خلال التأثر بالفكر اليوناني والفارسي)

وهو أخطر وأعمق جذور فكرة العصمة والولاية التكوينية عند الشيعة، لأنه هو

الذي حوّل الإمام من قائد دينيّ إلى كائن فوق بشريٍّ له سلطة على الكون.

أولا: من العصمة إلى "النور المحض"

في القرون الأولى، كانت العصمة عند الشيعة تقتصر على معنى "الطهارة من الذنب والخطأ في الدين".. لكن في القرن الثالث الهجري، ومع اختلاط الفكر الإسلامي بالفلسفة اليونانية (وخاصة الأفلاطونية الحديثة)، بدأت فكرة (الإمام النوراني) بالظهور.. فأُخذت من الفلسفة الإشراقية والسهروردية فكرة أن الوجود يصدر عن "العقل الأول" ثم "العقول الفعالة"، فقال بعض متصوفي الشيعة: الإمام هو مظهر النور الأول، وواسطة الفيض الإلهي على العالم.

أي أنه صار واسطة الخلق والإمداد، لا مجرد قائد روحي.

ثانيا: الفكرة في الموروث الفارسي

قبل الإسلام، كانت الديانة الزرادشتية والفكر الفارسي يعظّمان (الملك الإلهي) (الخليفة المقدّس) الذي يُدير الكون بأمر الإله "أهورامزدا".. وحينما دخل الإسلام إلى بلاد فارس، تسرّب هذا المفهوم إلى بعض التيارات الشيعية، فصار الإمام هو الواسطة بين الخالق والخلق، ويُقال فيه: بهم يُمسك الله السماوات والأرض.

وهذا الكلام لا أصل له في القرآن ولا في السنة، بل هو من موروثات (الملك المقدس) في الفكر الفارسي القديم.

ثالثا: انتقال المفهوم إلى "الولاية التكوينية"

هنا تطورت العقيدة أكثر: صار الإمام ليس فقط معصوما، بل يتصرف في الكون بإرادته ! يُحيي ويميت بإذن الله، يرزق ويكشف الغيب، يدبّر شؤون العالم.

وهذا المفهوم يسمونه الولاية التكوينية، أي أن للإمام (سلطة تكوينية) على الموجودات، لا تشريعية فقط.

ومن نصوصهم المشهورة: إن عندنا علم ما كان وما يكون، وإن أمرنا إذا شئنا شاء الله. (الكافي ج١ص٢٦١)

وهو ما يجعل.. الإمام.. في موقع أعلى من.. النبي، لأن النبي مبلّغ فقط، بينما الإمام (فاعل في الوجود) !

رابعا: التناقض مع التوحيد القرآني

هذا المفهوم يناقض التوحيد في جوهره؛ لقوله تعالى: ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ** ﴾ الأعراف ١٨٨

﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾ آل عمران ١٢٨

﴿ **قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ** ﴾ آل عمران ١٥٤

فلو كان الإمام.. **يعلم الغيب، ويُدبر الكون.. ويرزق.. ويُحيي.. ويُميت**... "بإذن الله"، فأيّ فرق إذن بين الخالق والمخلوق، أي: ما العمل الذي يعمله الخالق ولا يعمله المخلوق ؟

خامسا: خلاصة الأساس الفلسفي

أصل الولاية التكوينية ليس دينيّا، بل فلسفيّ فارسيّ – يونانيّ – إشراقيّ.

وهو الذي رفع الأئمة من مقام البشر إلى مقام "العقول المدبّرة"، مخالفا بذلك القرآن والعقيدة الإسلامية في التوحيد والنبوة.

تفكيك التناقضات الداخلية بين العصمة والولاية نفسها (أي: كيف تنقض الولاية

التكوينية فكرة العصمة، والعكس) ؟

تحليل التناقضات العقدية أو الفلسفية بين المفاهيم.. أي أن نحلل المنظومة كـ بنية فكرية داخلية: كيف ترتبط فكرة العصمة بفكرة الولاية التكوينية، وما الإشكالات المنطقية الناتجة عن الجمع بينهما.

كيف تؤدي العصمة المطلقة والولاية التكوينية – إذا اجتمعتا – إلى تناقضٍ بنيوي داخلي في المنظور الإمامي.

أولا: التناقض بين العصمة والإرادة

العصمة المطلقة تعني أن الإمام لا يمكن أن يخطئ ولا يختار إلا الصواب.. لكن الولاية التكوينية تعني أنه يملك إرادة فاعلة في الكون: يقرر، ويختار، ويغيّر الأقدار بإرادته.

هنا ينشأ السؤال الفلسفي: إذا كانت إرادته لا يمكن أن تنحرف عن الصواب، فهل تبقى له حرية إرادة أصلا ؟

في المنطق العقلي: الإرادة الحرة تتضمن إمكان الخطأ.. فإذا سُلب الإمكان، صارت الإرادة حتمية، لا فاعلة.

أي أن العصمة المطلقة تلغي معنى الإرادة التكوينية، وتحول الإمام إلى كائن مبرمج على الصواب، لا صاحب اختيارٍ فعلي.

ثانيا: التناقض بين (المخلوق الكامل) و(المصدر الكوني)

الولاية التكوينية تجعل الإمام واسطة في الخلق، أي أن الكون قائم بوجوده.. لكن العصمة تفترض أن الإمام مخلوق كغيره، خاضع لقدَر الله لا خالق له.

إذن لدينا مفارقة منطقية: إما أن الإمام خالق، فيستقلّ عن الله (وهو شرك)، أو أنه مخلوق، فلا يصحّ أن يكون مصدرا للخلق.

لا يمكن الجمع بين المخلوق المحدود والفاعل المطلق في ذات واحدة، إلا إذا تحوّل "الإمام" إلى رمز معنويّ للفيض الإلهي لا شخصا فعليا، لكن هذا التأويل يسقط جوهر الاعتقاد الشيعي ذاته.

ثالثا: التناقض بين (العلم اللدني المطلق) و(التكليف الديني)

يقول الفكر الإمامي إن الإمام يعلم الغيب كله "ما كان وما يكون"، ومع ذلك هو مكلّف بالعبادة والطاعة مثل سائر البشر.

لكن التكليف لا يستقيم مع العلم المطلق، لأن من يعلم نتيجة كل فعل قبل وقوعه لا يُختبر، وبذلك تنتفي الحكمة من التكليف والجزاء.

أي أن الإمام، إن كان يعلم كل شيء، فهو خارج نظام الاختبار الذي هو جوهر الدين.

رابعا: التناقض بين وظيفة (الهداية) ووظيفة (الولاية)

العصمة تبرر الإمامة بأنها ضرورة للهداية المعصومة.. لكن الولاية التكوينية تجعل الإمام يُجري أفعال الله في الكون.. فهل الإمام هادٍ مبلّغ أم فاعل في الخلق ؟

الوظيفتان متغايرتان: الأولى معرفية تربوية، والثانية وجودية كونية.. دمجهما يخلق ازدواجا في طبيعة الكيان نفسه، وهذا ما جعل بعض الفلاسفة الشيعة كصدر الدين الشيرازي يضطر إلى إعادة تفسير الإمامة رمزيا لا حرفيا؛ ليحافظ على الاتساق الفلسفي.

خلاصة التحليل البنيوي: الجمع بين العصمة المطلقة والولاية التكوينية ينتج منظومة غير مستقرة منطقيا؛ لأن الأولى تلغي الإرادة، والثانية تفترضها، والأولى تجعل الإمام مخلوقا طاهرا، والثانية تجعله مصدرا للخلق، والأولى تستند إلى التكليف، والثانية تخرجه من نظام التكليف.

كيف تطورت هذه الفكرة تاريخيا من مفهوم الإمامة السياسية إلى الكونية، مع ذكر المراحل الفكرية التي مرت بها ؟

نبدأ التحليل التاريخي التطوري لفكرة الإمامة عند الشيعة: كيف انتقلت من تصور سياسي إلى تصور ميتافيزيقي كوني، وهو تطوّر فكري فريد في تاريخ العقائد الإسلامية.

يمكن تقسيمه إلى أربع مراحل زمنية واضحة:

المرحلة الأولى: الإمامة السياسية (القرن ١هـ – أوائل ٢هـ)

بعد مقتل عثمان ﷺ فإن أنصار علي ﷺ لم يكونوا طائفة دينية مستقلة، بل تيارا سياسيا يرى أن عليا رأيه في الخلاف السياسي والإداري أحقّ بالاتباع.. وكانت فكرة الإمامة لديهم شأنا سياسيا دنيويا، ولم تكن العصمة أو الغيب أو الولاية التكوينية جزءا منها.. بل نجد في أقدم نصوص الكوفيين أنهم يجلّون عليا كأفضل الصحابة، لا ككائن فوق بشري.

إذن في هذه المرحلة، الإمامة: القيادة السياسية الشرعية.

المرحلة الثانية: الإمامة الروحية (منتصف ٢هـ – القرن ٣هـ)

بعد استشهاد الحسين وظهور الأئمة من ذريته، تحولت الإمامة من فكرة سياسية إلى

مرجعية دينية روحية.. فالإمام هنا هو العالم الورع، المفسّر، المبيّن للقرآن.

بدأت تتشكل فكرة أن الإمام يُلهَم أو يوفَّق إلى الصواب دائما، لكن لم تُستخدم بعد كلمة "معصوم" بالمعنى الفلسفي.

هذه هي مرحلة (الإمام العالم الملهم)، لا (الإمام الإلهي).

المرحلة الثالثة: الإمامة المعصومة (القرن ٣هـ – ٤هـ)

في هذه الفترة، بعد صدمة الغيبة الصغرى سنة ٢٦٠هـ، احتاجت الطائفة إلى تبرير استمرار السلطة الدينية رغم غياب الإمام.. فتم رفع الأئمة إلى مقام فوق بشري، وقيل إنهم.. معصومون من الخطأ مطلقا.. وأنهم يعلمون علم الغيب بما ورثوه من النبي ﷺ !

تدوين "الكافي" للكليني في القرن الثالث هو الذروة لهذا التحول، إذ نُظّمت فيه عقيدة العصمة كأصلٍ من أصول الإيمان، ولم تعد الإمامة اجتهادا سياسيا بل عقيدة غيبية.

المرحلة الرابعة: الإمامة الكونية (من القرن ٥هـ إلى الصفويين)

في هذه المرحلة، ومع امتزاج الكلام الشيعي بالفلسفة المشائية والإشراقية، تحولت الإمامة من (معصومة) إلى (مدبّرة للكون).

أبرز من صاغها فلسفيا:

الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ): قال إن الله لا يترك الأرض بلا إمام معصوم.

نصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢هـ): صاغ مفهوم "الإمام ضرورة وجودية".

صدر الدين الشيرازي (القرن ١١هـ): جعل الإمام "العقل الكلي" الذي يصدر عنه

الوجود.

ثم جاء العهد الصفوي (القرن ١٠–١١هـ) ليجعل هذه العقيدة ركنا رسميا للدولة والمذهب، فأُعطي الإمام مكانة فوق النبوة فعليا، وأصبحت "الولاية التكوينية" مبدأ شعبيا وسياسيا في آن واحد.

الأثر السياسي والمعرفي لهذا التطور

كيف أثّر تطور مفهوم الإمامة من السياسي إلى الكوني على البنية السياسية والعقلية للمذهب الشيعي، أي كيف غيّر طريقة فهم السلطة والمعرفة معا.

أولا: الأثر السياسي – من الدولة إلى الغيبة

في البداية: كان الشيعة يطمحون إلى إقامة دولة عادلة بقيادة علي ونسله، أي هدف سياسي واضح.. لكن بعد مقتل الحسين ثم غيبة المهدي، سقط المشروع السياسي الواقعي، وتحول إلى مشروع لاهوتي غيبي.

نتيجة ذلك: صارت الإمامة فكرة ميتافيزيقية تحكم من وراء الغيب، وظهر مفهوم "النيابة العامة" عن الإمام الغائب، وهو ما مهّد لاحقا لظهور ولاية الفقيه في الفكر المعاصر، كبديل مؤقت عن حضور الإمام نفسه..

أي أن غياب الدولة الواقعية ولّد دولة فكرية غيبية، تمسك بالسلطة باسم "التمثيل عن المعصوم".

الأثر المعرفي – من الاجتهاد إلى التسليم

في المراحل الأولى: كان أئمة الشيعة منفتحين على الاجتهاد العقلي والنقلي.. وكان التفكير النقدي جزءا من التشيع الأولي.

لكن مع عقيدة العصمة المطلقة: لم يعد رأي الإمام يُناقَش، لأنه لا يُخطئ أصلا. فصار كل اجتهاد أو تفسير لاحق يجب أن ينسجم مع قول المعصوم، لا أن يراجعه وبهذا انتقل العقل الشيعي **من الاجتهاد التفسيري إلى العقل التبريري**، أي عقل يبرر ما نُقل عن المعصوم لا ما يُستنبط من النص.

أما في مرحلة الولاية التكوينية: فصارت معرفة الإمام معرفة لدنية، لا تُنال بالعقل أو الاجتهاد، بل بالتسليم والولاء.

وهنا تحوّل مركز المعرفة من النص والعقل إلى الشخص المقدس.

الأثر الاجتماعي: أثر تلك العقيدة في البنية الاجتماعية

تشكّلت طبقة من الوسطاء (العلماء والفقهاء) تمثل الإمام الغائب.. ومع مرور الزمن، أصبح الولاء لهذه الطبقة مرادفا للولاء للإمام نفسه.. وهكذا نشأت سلطة دينية ذات تسلسل هرمي شبيه بـ المؤسسة الكنسية، وهو ما يفسر الطابع "التراتبي" الذي يميّز المرجعيات الشيعية المعاصرة.

المفارقة: المشروع الذي بدأ بالمطالبة بخلافة بشرية عادلة.. انتهى إلى منظومة كونية غيبية تحكم باسم إنسان غائب.. وتحولت الإمامة إلى لاهوت شامل يربط بين السماء والأرض، لكن بثمن: تقييد العقل، وتأليه القيادة.

الانشقاقات الحديثة داخل التشيع

بعد قرون من "الغيبة الكبرى"، وجد الشيعة أنفسهم أمام مأزق فكري كبير: كيف يعيشون بلا إمام ظاهر منذ أكثر من ألف عام ؟

ومن الذي يحق له أن يفسّر إرادة "الإمام الغائب" ويقود الأمة ؟

ومن هذه الحيرة، وُلدت سلسلة من الانشقاقات الفكرية التي ستعيد رسم خريطة التشيع الحديث، وتحوّله من مذهب روحاني ساكن إلى كيان سياسي متنازع.

١- المدرسة الأخبارية (الجمود على النصوص): ظهرت في القرن الحادي عشر الهجري، كردّ فعل على محاولة بعض العلماء ممارسة الاجتهاد والقياس.

قائدها: المحدّث الأمين الاسترابادي.

الفكرة الأساسية: (لا اجتهاد في الدين زمن الغيبة).. (كل ما نحتاجه موجود في أحاديث الأئمة).. (الفقيه ليس له حقّ الفتوى، بل عليه فقط نقل النصوص).

وهكذا تحوّل الفكر إلى نصوص مغلقة، والمجتمع إلى عالم تقليدي جامد.. وبهذا تحولت الفكرة من "انتظار الإمام" إلى "تجميد الأمة" في انتظار لا نهاية له.

لكن هذا الجمود لم يدم طويلا...

٢- المدرسة الأصولية (العقل الفقهي): في القرن الثاني عشر الهجري، ظهر الوحيد البهبهاني في كربلاء، فثار على الأخبارية وقال: لو أغلقنا باب الاجتهاد، مات الدين؛ لأن الإمام الغائب لا يجيبنا.. وهكذا أطلق حركة الأصوليين الذين قالوا: "الفقيه نائب عام عن الإمام في زمن الغيبة"، "يجب استخدام العقل في فهم النصوص"، "الاجتهاد فرض كفاية على الأمة".

بهذه الفكرة، انتقل التشيع من السكون إلى الحركة، وبدأ الفقهاء يملكون سلطة دينية وقضائية على الناس باسم "النيابة عن المهدي".

لكن هذه السلطة الجديدة لم تبقَ نظرية طويلا...

٣- مدرسة ولاية الفقيه (تحويل النيابة إلى حكم): في القرن العشرين، طرح

الخميني في كتابه الحكومة الإسلامية فكرة: أن النبي والإمام معصومان في الحكم، كذلك يجب أن يحكم الفقيه نيابة عن الإمام الغائب؛ فأصبحت ولاية الفقيه امتدادا طبيعيا للنيابة العامة، ولكن بثوب سياسي كامل.. وفي عام ١٩٧٩، تحققت لأول مرة هذه النظرية على أرض الواقع بتأسيس جمهورية إيران الإسلامية، التي نصّ دستورها على أن الولي الفقيه هو الحاكم الأعلى باسم الإمام الغائب.

هكذا تحولت الفكرة العقائدية إلى دولة سياسية، وصار "الإمام الغائب" غطاء أيديولوجيا لحكم الفقهاء، وبذلك أصبحت إيران مركز القيادة الشيعية العالمية.

لكن.. الخميني.. بولاية الفقيه.. هدم المعبد على من فيه.

أتُنكرون الشورى التي نزل بها القرآن، ثم تُقيمون حاكما لم يستخلفه لا الله ولا نبيّه ولا إمامكم الغائب ؟ فمتى أوصى الإمام الغائب لفقيه بعينه ؟ وأين النص الذي فوّضه ؟ لقد أقاموا ((كل عقيدتهم)) على "النصّ الإلهي في الإمامة" ؟ فكيف يثبتون النيابة بلا نصّ ؟! أين يُعلن الإمام رضاه أو غضبه من فتوى الفقيه ؟ أليس غائبا ؟ فمن يخبرهم بما يُرضيه ؟!

لقد جعلوا من "الغيبة" أداة لتكريس سلطتهم، يتكلمون باسم من لا يتكلم، ويحكمون باسم من لا يحكم، ويُصدرون الفتاوى باسم من لم يوكّلهم أصلا !

نعم الأمة بحاجة إلى مرجعية.. لكن المرجعية تكون لله وكتابه وسنة نبيّه ﷺ، لا لإنسان مجهول غائب، ولا لفقيه يرفع نفسه إلى مقام النبي والإمام..

النيابة الحقيقية هي: أن تكون ناطقا بالحق، لا متحدثا باسم الغائب.. إن الدين لا يُدار بالوكالة عن مجهول، بل بالشورى والبيّنة والعلم، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَمْرُهُمْ**

﴿ شُورَى بَيْنَهُم ﴾ الشورى ٣٨

وبذلك يجدون أنفسهم في المربع الأول.. فقد عادوا إلى السقيفة !

الفرق.. أنهم يقيمون حكما باسم "المهدي"، لا باسم "الله".

من جعل من الغائب سلطانا، فقد اتخذ من الدين ستارا.

٤- المدرسة الشيرازية (التمرد الداخلي على ولاية الفقيه): سرعان ما انقسم الشيعة أنفسهم حول من يملك الشرعية الدينية: فريق تبنّى ولاية الفقيه واعتبرها واجبة.. وفريق آخر، بقيادة مُحَمَّد الشيرازي ثم صادق الشيرازي، رفض أن يحكم الفقيه باسم الإمام، وعدّ ذلك "اغتصابا لحق المهدي".

فظهرت المدرسة الشيرازية المعارضة لولاية الفقيه، وامتدّ نفوذها في العراق والكويت والبحرين، وصار الخلاف بين الطائفتين اليوم أشبه بصراع "سنّي - شيعي.. داخلي" بين "شيعة الدولة" و"شيعة الانتظار"، ورغم معارضتهم لولاية الفقيه فقد أبقوا على نفس البناء الذي أفسد البيت؛ إذ كيف تعارض "ولاية الفقيه"، لكنك تُبقي على "ولاية الإمام الغائب" ! فما الفرق بين من يزعم أنه نائب الإمام، ومن يزعم أنه خادم الإمام ؟ كلاهما يجعل الدين رهين "الغيبة".

العدل لا ينتظر، العدل يُقام.. ولو أن الناس انتظروا المصلح، لما صلح منهم أحد.

الإسلام لا يربّي المنتظرين، بل العاملين الذين قال الله عنهم: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ العنكبوت ٦٩

فلا وصاية بعد نبيّ، ولا غيبة بعد وحي.

الإسلام رسالة الله إلى العالمين، لا مشروع آل البيت إلى طائفة المنتظرين.

التقييم الفلسفي البنيوي للفكر الشيعي بعد اكتمال تحوّله من مشروع سياسي إلى منظومة لاهوتية كونية

أولا: الملامح الفكرية المميزة للمذهب بعد تطوره

التوجيه الشخصاني للحقّ: أي أن الحق لا يُعرَف بمبدأ، بل بشخص.

فالميزان ليس (ما قاله النص.. الصحيح)، بل (من الذي قال.. مهما كان الإسناد).

وهذه سمة تعيدنا إلى بنية (القداسة الشخصية) أكثر من (المعيار العلمي).

توحيد المعرفة والسلطة في كيان واحد: فالإمام هو المرجع العلمي والروحي والسياسي في آن واحد، ما يجعل المنظومة تميل إلى المركزية الشديدة؛ ولهذا فإن الوعي الجمعي داخلها لا يعرف الفصل بين الدين والسياسة، لأن كلاهما تجلّ واحد للولاية.

اللاهوت التاريخي: كل حدث في التاريخ يُقرأ بوصفه جزءا من خطة إلهية متدرجة تبلغ كمالها في المهدي المنتظر.

أي أن الزمن له معنى قدري ديني، لا مجرد تتابعٍ دنيوي.

وهذا يفسّر تمسّك الفكر الشيعي بفكرة (الانتظار)، إذ ليست غيبوبة الإمام إلا غيبوبة المعنى الإلهي في التاريخ بانتظار اكتماله.

التركيب الجدلي بين المظلومية والنخبوية: فالشيعة يرون أنفسهم ضحايا تاريخية من جهة، وصفوة مصطفاة من جهة أخرى.

هذه الثنائية أنتجت وجدانا مركبا: احتجاجيا ضد الواقع، ومتعاليا عليه في الوقت نفسه.. فهي مظلومية تمنح شرعية النخبة.

ثانيا: نقاط القوة الفلسفية

العمق الوجودي للإنسان المعصوم: تحويل الإمام إلى كيان كوني جعل المذهب يرى الإنسان بوصفه واسطة بين الله والعالم، لا مجرد مخلوقٍ عابد.. وفي ذلك نوع من السمو الإنساني الفلسفي النبيل.

الاستمرارية الفكرية: فبنية "الوصاية المتسلسلة" ضمنت انتقال الفكرة جيلا بعد جيل، دون انقطاع أو تفكك.

البعد الأخلاقي للمظلومية: جعل الحسّ الأخلاقي عميقا في الوجدان الشيعي، إذ يرتبط الدين لديهم بالعدل ومقاومة الظلم، لا بمجرد الطقوس والشعائر.

ثالثا: نقاط الضعف الفلسفية: تأليه الوسيط.. بقدر ما منح المذهبُ الإمامَ مقاما ساميا، بقدر ما فقدَ التوحيدُ معناه البسيط: أن لا وساطة بين الخالق والمخلوق.

فالمطلق تسرب إلى النسبي، والعقيدة إلى الشخص.

انكماش العقل النقدي: لأن العصمة ألغت المسافة بين الفكر والإيمان، فصار السؤال نفسه نوعا من الشكّ.. وهكذا تراجع الإبداع العقلي الحر لصالح التقليد التقديسي.

تأجيل العدالة إلى الماوراء: إذ حُوّلت العدالة من مطلب عمليّ إلى وعد غيبي، فبقدر ما غذّت الأمل، أخّرت الفعل.

رابعا: التقييم المنهجي العام: الفكر الشيعي نموذج فريد في **تحويل الخيبة السياسية إلى بنية لاهوتية**، إذ لم يستسلم للواقع، بل أعاد صياغته رمزيا.

لكنه حين نقل المعركة من الأرض إلى الغيب، ربح المعنى، وخسر الواقع.

من المظلومية إلى الهوية

تفكيك الدوافع النفسية والاجتماعية التي جعلت المذهب الشيعي يتخذ صورته الحالية، بعيدا عن الجدل العقائدي الصرف.

العقيدة ليست نصا فقط.. الفكر الديني لا يعيش بالنص وحده، بل بالانفعال الجمعي الذي يحيط به.. والشيعة – تاريخيا – عاشوا تجربة دينية تغذّت على الجرح التاريخي أكثر من النصوص نفسها.. أي أنهم لم يبنوا منظومتهم على نبوّة مُحَمَّد ﷺ فحسب، بل على مأساة آل مُحَمَّد.

المظلومية: النواة العاطفية للمذهب.. المظلومية هي المفتاح النفسي الأهم لفهم التشيع.. فمنذ مأساة كربلاء، تحوّلت الواقعة من حدث سياسي إلى رمز كوني، صار فيه الحسين نموذج (الحق المهزوم) في مواجهة (الظلم المنتصر).. لكن هذا الشعور، حين يتراكم قرونا، ينتج نوعا من الهوية الوجدانية المغلقة: شعور دائم بأننا "الأقلية المقهورة" التي تحفظ النور وسط ظلمات العالم.

وهكذا تحولت العقيدة من منظومة فكرية إلى دراما دينية متجددة.

الطقس كأداة لاستمرار الذاكرة: الطقوس الحسينية ليست مجرد شعائر، بل آلية نفسية جماعية لإعادة بناء الذات.. فيها يبكي الفرد لا على الماضي فقط، بل على إحباطاته الشخصية، فيندمج في مأساة مقدسة تمنحه معنى جديدا للمعاناة.

ومن هنا جاءت قوة التشيع في البقاء: إنه دين الذاكرة والعاطفة.

لكن بالمقابل، هذه الذاكرة حين تُؤلَّه تغلق الباب أمام المراجعة التاريخية، فتتحول الدمعة إلى عقيدة، والعقيدة إلى هوية.

البعد الاجتماعي والسياسي: حين يُبنى الوعي على المظلومية، تصبح العدالة هي القيمة العليا، لكنها أيضا تتحول إلى مبرر دائم للانتقام.. لذلك ترى في الوجدان الشيعي نزعة مزدوجة: توقٌ إلى العدالة المطلقة، ورغبة دفينة في إعادة التوازن بالثأر الرمزي.. وهذا ما يفسر كيف تماهى التشيع مع الثورات – من ثورة المختار إلى الخميني – فهو لا يرى التمرد انشقاقا، بل طقسا مقدسا لاستعادة كربلاء.

بين العقيدة والهوية: مع مرور القرون، تضاءل الجانب الفقهي والفلسفي في المذهب، بينما تعاظم الجانب الهويّاتي والسياسي.. فأصبح الانتماء للشيعة أقرب إلى انتماء وجوديّ لا لاهوتي: أنا شيعي لأننا مظلومون، وليس دائما لأن الأدلة الكلامية أوجبت ذلك.

إنها عقيدة شعورية أكثر منها عقلية، ولذلك ظلت قادرة على التمدد الشعبي حتى في بيئات لم تعرف عمق التراث الإمامي.

المفارقة: في مجلس العزاء الحسيني لم ينسوا مأساتهم منذ ألف عام، ومع ذلك لم يملّوا روايتها كل عام بنغمة جديدة.. يبدو أن الحزن عندهم ليس وجعا، بل هوية.. ما أعجب أمة تتعبد بالبكاء أكثر مما تتعبد بالرجاء.

هذه المفارقة ليست ازدراء، بل مرآة عقل يرى كيف تحوّل الحزن إلى لاهوت.

من المظلومية إلى العصمة الاجتماعية: حين تتقدّس المظلومية، يتحول أبطالها إلى معصومين رمزيين، فتُرفع أخطاؤهم فوق النقد، ويُصبح الولاء لهم مقياس الإيمان.

وهكذا وُلدت العصمة الثانية – ليست عصمة النص، بل عصمة الجماعة.. أي أن من ينتقدها يُدان لا لأنه كفر، بل لأنه خان ذاكرة الجرح.

كل عقيدة تبدأ فكرة وتنتهي ذاكرة.. والشيعة بنوا ذاكرتهم على جرح لم يندمل، فصار الألم عندهم وسيلة للتماسك، والانتظار ميثاقا وجوديا مع الغيب.. وإذا كان الإسلام وعدا بالفتح، فالتشيع وعد بالإنصاف المؤجل.

هناك فرق بين أن نتذكر الجرح وأن نسكنه.. لقد حولوا الألم إلى معبد، تُقدَّم فيه القرابين كل عام من الدموع والدماء.

وهكذا كان الوصول إلى الهوية

(١) صناعة فكرة "الإمام النصّي"

لم يكن لدى أوائل الشيعة أي تصور واضح عن الإمامة ولا العصمة.. لكن مع مرور الزمن، أدرك المبرّرون أنّ: الحسين لا يمكن أن يكون مجرد قائد مظلوم، ولا يمكن ترك المأساة دون تفسير كوني، ولا يمكن.. لقضية.. عاطفية.. أن تستمر.. دون "نظرية".. فصُنعت فكرة الإمامة بالنص: أي أن النبي ﷺ نصّ على أئمة محددين، واحدا بعد آخر، في سلسلة مغلقة لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد.

هذه الفكرة لم تكن معروفة في القرن الأول، بل ظهرت لاحقا، ثم أخذت تتضخم وتتزخرف حتى بلغت ١٢ إماما في القرن الثالث الهجري.

(٢) العصمة... لحماية الفكرة من السقوط

حين صُنعت فكرة الإمامة النصّية، ظهرت مشكلة كبيرة: الأئمة بشر، يتصرفون، يخطئون، يترددون، يختلفون سياسيا... وهذا ينسف الأسطورة.

فتم اختراع فكرة العصمة الكاملة، لا جزئية ولا نسبية.

عصمة تحوّل الإمام إلى: مصدر تشريع.. كاشف للغيب.. حامل للعلم اللدني..

معصوم من النسيان والسهو.. مُنزَّه عن الخطأ عمدا وسهوا.

ولاحظ أنّ العصمة التي ينسبونها للأئمة أعظم من عصمة الأنبياء الواردة في القرآن.

لماذا تم اختراع ذلك ؟

لأن المذهب بحاجة إلى جدار إسمنتي يحميه من الانهيار أمام النقد.

(٣) الباطنية... صناعة الغموض لضمان السيطرة

حين اكتملت فكرة الإمامة والعصمة، ظهرت معضلة أخرى: إذا كان الإمام معصوما... فلماذا لا تكون تعاليمه واضحة للجميع ؟ لماذا لا يتكلم بوضوح، ويعلّم الناس كما علّم النبي ﷺ ؟ هنا تظهر مرحلة "الهندسة الدقيقة" للمذهب: الباطن فوق الظاهر.. االتأويل فوق النص.. السرّ فوق العلن.

وهكذا صار للمذهب "باطن" لا يعرفه إلا الخاصة، و"ظاهر" يصل للعامة.

هذه الازدواجية أعطت المذهب قوة؛ لأنه:

يُسكت كل معترض: (هذا له معنى باطني لا تعلمه)..

ويمنح القادة سلطة مطلقة: (الإمام وحده يعرف الباطن)..

فإذا ضعُف الدليل، قالوا: باطن.

وإذا سقط الظاهر، قالوا: تأويل.

وإذا اصطدموا بالقرآن، قالوا: له وجهان.

وهكذا صار المذهب نظاما مغلقا لا يمكن محاكمته من الداخل.

(٤) صناعة القداسة حول العائلة

ولكي تكتمل الصورة، احتاج المذهب إلى "هالة" تقديسية تمدّه بالأكسجين

العاطفي.

فصنعت الروايات التي: ترفع الأئمة فوق البشر.. تجعل الكون قائما بهم.. تجعل الملائكة تخدمهم.. تجعل الأرض لا تخلو منهم.. تجعل علوم الأنبياء ترجع إليهم.. وتجعل مصير الخلق كله معلّقا برضاهم وشفاعتهم.

هذه الروايات لم تتشكل دفعة واحدة، بل تراكمت عبر القرون...

كل جيل يضيف، وينسج، ويجمّل، حتى صار لدينا جبل هائل من الأساطير التي تحيط بـ "البيت العلوي".

لكن.. المفارقة أنّ كل هذا البناء.. المتراكم.. لا علاقة له بالإسلام الذي جاء به النبي ﷺ، ولا بما فهمه الصحابة، ولا بما أجمع عليه المسلمون في القرون الأولى.

وبهذا نرى أنّ المذهب الشيعي لم يُولَد دفعة واحدة، بل مرّ بمراحل.. كل مرحلة تدفع للمرحلة التالية...

حتى أصبح لدينا "كون عقائدي مواز" يعيش داخل الأمة لكنه ليس منها.

وقد احتاج إلى "ختام روائي" يقفل الباب.

فاخترعوا: الغيبة الصغرى.. الغيبة الكبرى.. السفراء الأربعة.. التوقيعات.. سردية الانتظار الطويل.

وهكذا اكتمل البناء.. ليظل السؤال الذي يتردد من يومها.. ليس هو: كيف استطاعوا أن يقنعوا الطائفة بكل هذه المسرحيات، ولا السؤال هو: كيف استطاع السمري (النائب الرابع) أن أن يخدعهم بالتوقيعات وسردية الانتظار..

بل السؤال هو: كيف صدقوا !

الرد على الشبهات

سوف أتناول الشبهات بحسب محاور العقيدة، والمحور الأول هو الصحابة؛ لأنه حجر الأساس الذي بنيت عليه كل دعوى التشيّع.

الشبهة: (الصحابة ارتدوا)

الصحابة ارتدّوا بعد وفاة النبي ﷺ، ولم يبقَ على الإيمان إلا ثلاثة أو خمسة.

خلفية الشبهة: يُروّج الشيعة أن أكثر الصحابة – باستثناء قلّة – خانوا النبي ﷺ بعد وفاته، واغتصبوا الخلافة من عليّ، وكتموا الوصية الإلهية، وبذلك "ارتدّوا" عن الدين !

الرد: الصحابة ليسوا مجرد شخصيات في التاريخ، بل هم الحلقة التي يصل من خلالها الوحي إلى الأجيال اللاحقة..

فالصحابة هم أهل: الإيمان المبكر.. والهجرة.. والجهاد.. ونصرة النبي ﷺ.. وتحمل الأذى.

ولهذا فإن الدفاع عنهم ليس دفاعا عن أفراد فحسب، بل عن بنية الإسلام التاريخية كلها.

فإذا إرتدوا.. من الذي نقل إليكم القرآن ؟

ومن الذي بلّغكم سنة النبي ﷺ ومن الذي أقام الإسلام في فارس والعراق وخراسان والهند ؟

أأولئك المرتدون ؟!!

لو كانوا مرتدّين كما تزعم، فدينك الذي تؤمن به اليوم مبني على أيدي المرتدين !

فالشيعة أنفسهم يقرؤون قرآنا جمعه الصحابة الذين "ارتدوا" بزعمهم، ويصلّون صلاة نقلها مَن ؟ نفس "المرتدين" !

فإما أن تثق بعملهم – أو تتركه كله.

أما أن تكفّرهم وتبني دينك على ما نقلوه – فهذه قفزة عقلية بهلوانية لا نظير لها.

الصحابة في القرآن: القرآن أثنى على الصحابة في مواضع كثيرة.. مثل: السابقين الأولين.. أهل بيعة الرضوان.. المهاجرين والأنصار..

قال تعال: ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾

التوبة ١٠٠

﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** ﴾

الفتح ١٨

﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ... وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ الفتح ٢٩

هل الله يرضى عن قوم يعلم أنهم سيرتدّون بعد أيام ؟! أيعقل أن الله يمدحهم في آخر كتابه ثم يُكذّب نفسه بعد صفحات ؟

إذن الاتهام ليس في الصحابة، بل في عقول من ظن أن الله يُضلّ الناس بمدح المرتدين !

المفارقة التاريخية: لو كان الصحابة فعلا ارتدّوا، فمن الذي قاتل المرتدين الحقيقيين بعد وفاة النبي ﷺ ؟ أبو بكر رضي الله عنه ! فهل المرتد يحارب المرتدين ؟!

الشبهة: (الصحابة نافقوا)

كثير من الصحابة كانوا منافقين، تظاهروا بالإسلام في حياة النبي ﷺ ثم كتموا الحق بعد وفاته.

وهي من أكثر دعاوى الشيعة تكرارا لأنها تجمع بين الاتهام الديني والتاريخي.

الرد المنطقي العقائدي: من الذي وصف المنافقين في القرآن ؟ الله تعالى نفسه، أليس كذلك ؟ هل ذكر الله أن أبا بكر أو عمر أو عثمان أو طلحة أو الزبير أو عائشة من المنافقين ؟ أبدا.. بل مدحهم في عشرات الآيات، فقال: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** ﴾ الفتح ١٨

﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ... وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ الفتح ٢٩

فهل الله يمدح المنافقين ويبشّرهم بالمغفرة ؟!

المفارقة التاريخية: الشيعة يقولون إن الصحابة "كتموا الوصية".

فنقول لهم: إذن عليّ كان موجودا وقتها، أليس كذلك ؟ فلماذا سكت ؟ هل عجز عن إعلان الوصية ؟ هل نسيها ؟ هل رضي بالباطل ؟ لو كتم الصحابة وصية النبي ﷺ، فإما أن يكون عليّ عالما بذلك فسكت، أو جاهلا بها فلم يكن وصيّا أصلا.

وفي الحالتين تسقط الدعوى.

ثم نفتح "نهج البلاغة" نفسه: هل نجد فيه أن عليّ قال: خانني الصحابة وكتموا وصية النبي لي.. أبدا ! بل قال عن أبي بكر وعمر: لعمري إنهما قاما بالأمر بعد

نبيّنا فأحسنا السيرة وعدلا في الأمة.. فمن أين جاء الشيعة بهذا.. الكتمان ؟

ثم كيف يُمكن لأكثر من مئة ألف صحابي حضروا حجّة الوداع، أن يتواطؤوا جميعا على كتمان وصية "إلهية" ؟!!

هل اتفقوا – في يومٍ واحد – أن يخونوا الله ورسوله ؟!!

هل أرسلوا رسائل واتساب وقتها ؟! إنها دعوى أكبر من قدرة البشر على تنفيذها أصلا ! فلو كتمها عشرة أو مئة، فماذا عن بقية الصحابة من الحبشة واليمن والطائف والمدينة ومكة ؟! هل كل هؤلاء منافقون أيضا ؟!

إذن الإسلام الذي بين يديك من روايتهم باطل من أساسه !

المفارقة النفسية: الشيعي يقرأ القرآن الذي جمعه الصحابة، ويصلي صلاة علمها الصحابة، ويصوم صوما رواه الصحابة، ثم يقول: لكنهم كانوا منافقين !

فهو مثل من يشرب ماء ويقول: الماء مسموم، لكنه يرويني.

الدليل القطعي: النفاق في القرآن صفة محدّدة زمنا ومكانا – في المدينة، في حياة النبي ﷺ، وقد فضحهم الله بأسمائهم وأفعالهم.

فمن أين جاء بعد النبي ﷺ "جيل جديد من المنافقين" لم يذكرهم الله ؟ أم أن الوحي نسيهم ؟!

إذن.. القرآن مدح الصحابة، والشيعة شتموهم.

النبي ﷺ زوّجهم، وآخى بينهم، ورضي عنهم.. والشيعة كفّروهم بعد موته.

فأي الفريقين أصدق: من عاش معهم ورآهم بوحي من الله ؟ أم من جاء بعد ١٤٠٠ سنة ليحلّل التاريخ بعين الثأر ؟

الشبهة: (الصحابة حرفوا القرآن)

القرآن الذي بين أيدينا ناقص، والصحابة حذفوا منه أسماء الأئمة وآيات في فضل عليّ وأهل البيت.. كما يزعم بعض متقدّمي الشيعة، وهي النقطة التي تَكشف الوجه الحقيقي للفكر الإمامي وتُعرّي مصدره.

وهي من أخطر وأكذب دعاوى التشيّع، لأنها تمسّ أصل الإسلام نفسه.. وهذه العقيدة لم تكن فرعية عند المتقدمين، بل أصلٌ من أصول مذهبهم، وإن كان متأخروهم يحاولون إنكارها اليوم للتقية.

الرد العقلي من البداية: إذا كان الصحابة حرّفوا القرآن، فأي قرآن تقرأه أنت اليوم ؟ أليس هو نفس المصحف الذي جمعه عثمان ؟ إذن أنت تقرأ "التحريف" كل يوم ! فإما أن: تقرّ أن هذا هو كلام الله كاملا، فتكذّب أئمتك الذين زعموا نقصه.. أو تصدّق أئمتك، فتكذّب الله الذي قال: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ الحجر ٩

ولا ثالث لهما.

الدليل من القرآن نفسه: القرآن تحدّى الإنس والجن أن يأتوا بمثله، ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ** ﴾ الإسراء ٨٨

فلو كان ناقصا أو محرّفا، لما كان هذا التحدّي قائما.

بل لما صحّ أن يُقال له ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ** ﴾ البقرة ٢

المفارقة: إذا كان الصحابة قد حرّفوا القرآن كما تزعم الروايات الشيعية، فلماذا أبقوا

على الآيات التي تذمّ المنافقين والكافرين.. ولم يحذفوا ما تستدلون به على الإمامة وعلى العصمة ؟! أليس أسهل لهم أن يحذفوا (إنما وليكم الله ورسوله...) مثلا ؟

بل كيف يُتّهم من جمع القرآن (كأبي بكر وعثمان) بالتحريف، ثم يعتمد الشيعة اليوم نفس المصحف الذي جمعوه ؟

المفارقة المنطقية: كيف يُقال إن الأئمة يعلمون الغيب ولهم ولاية تكوينية، ومع ذلك عجزوا عن إعادة القرآن الصحيح ؟ هل فقدوا الجرأة أم القدرة ؟ فإن كانوا عاجزين فليست لهم ولاية تكوينية، وإن كانوا قادرين وسكتوا، فهم ليسوا بمعصومين !

ومن الذي حفظ القرآن ؟ هل كان الشيعة موجودين في عهد النبي ﷺ؟ أبدا، لم تكن فرقة باسم "الشيعة" حينها.. إذن الذي حفظ القرآن ودوّنه وكتبه هم الصحابة الذين تزعمون أنهم حرفوه !

فكيف يحرف الناقل ويُبقي النص كما هو ؟

هل حرّفوه ثم جلسوا يحفظونه بأخطائهم للأجيال القادمة بدقة متناهية ؟!

حتى كبار علماء الشيعة اعترفوا: قال الطبرسي في "مجمع البيان": القرآن الموجود بين أيدينا هو **عين ما أنزله الله على نبيه، لم يزد ولم ينقص**.

وقال الخوئي في "البيان": **القول بتحريف القرآن يوجب الكفر**.

إذن.. حتى كبار مراجعهم المتأخرين خجلوا من هذه التهمة وحاولوا التبرؤ منها.

لكن في كتبهم القديمة مثل "الكافي" و"الأنوار النعمانية"، نجد نصوصا صريحة تقول: إن القرآن الذي أنزله الله على نبيه سبعة عشر ألف آية. (أي ثلاثة أضعاف المصحف الحالي) فهل كنتم تقرأون نسخة طويلة ثم اختفت ؟! أم أنكم صدّقتم

خرافة ؟

الدليل القاطع: قال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ الحجر ٩

فإما أن الله صادق ومراجعكم يكذبون، أو تصدقون مراجعكم وتكذبون ربكم !!

وبذلك يهدم الإسلام من أساسه قبل أن يهدم الصحابة.

القول بتحريف القرآن هو تكذيب لله نفسه !

الشيعة يقرأون المصحف العثماني الذي جمعه "الصحابة الذين كفّروهم".

لم يثبت في التاريخ وجود أي "قرآن بديل" ولا "آيات ولاية" حُذفت.

الفكرة وُضعت لتبرير غياب أي دليل قرآني على الإمامة.. فمن لا يجد دليله في القرآن، يختلق رواية تقول: حُذفت ! الكتاب محرّف..!! فالفكرة ردّة فعل سياسية لا اعتقاد إيماني.. فلما لم يجدوا آية تنصّ على عليّ، قالوا: إذن حُذفت !

المفارقة المنطقية: كيف يُقال إن الأئمة يعلمون الغيب ولهم ولاية تكوينية، ومع ذلك عجزوا عن إعادة القرآن الصحيح ؟ هل فقدوا الجرأة أم القدرة ؟ فإن كانوا عاجزين فليست لهم ولاية تكوينية، وإن كانوا قادرين وسكتوا، فهم ليسوا بمعصومين !

المفارقة الدينية: لو سلّمنا بتحريف القرآن، فسنضطر أن نقول إن الصلاة والزكاة والصوم والحج أيضا مشكوك فيها، لأنها مأخوذة من نفس الكتاب.. فما بقي من الدين إذن ؟ بل يصبح المذهب كله مبنيا على كتاب لا يثقون به !

إذن.. تحريف القرآن هو تكذيب لله عز وجل في قوله ﴿ **إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾.

من زعم أن الله فشل في حفظ كتاب **وعد بحفظه**، فقد اتهم ربه بالعجز.

الشبهة: (النبي ﷺ نصّ على عليّ بالخلافة بأمر من الله)

يستدلّ الشيعة بقولهم: النبي قال في غدير خم: من كنت مولاه فعليّ مولاه.. ويزعمون أنّ "مولاه" تعني وليّه وخليفته بعده..

هذه هي الجذور الأولى التي نبت منها كلّ تشيّع، ومنها تفرّعت باقي الشبهات كالشجرة من الجذر.

الرد المنطقي: هل كانت واقعة الغدير في حياة النبي ﷺ أم بعد وفاته ؟

سيقولون: في حياته..

فنقول: إذن لو كان هذا نصّا بالخلافة، فلماذا لم يبايع النبيّ أحدا هناك ؟ ولماذا لم يأمر عليّا بالجلوس مكانه ؟ بل لماذا لم يفهم أيّ صحابيٍّ من الحاضرين هذا الفهم ؟ هل خفيَ الأمر على الصحابة جميعا وفهمه الرافضة بعد ١٤ قرنا ؟!!

أيعقل أن النبي ﷺ يخفي (وصية الله الكبرى) التي يتوقف عليها مصير الأمة ؟

إن مجرد طرح الفكرة اتهام للنبي ﷺ نفسه بالتقصير في البلاغ ! فمن زعم أن الله أوحى إليه بذلك ولم يبلّغه فقد كذّب قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ المائدة ٦٧

فهل النبي ﷺ قصّر ؟ أم أن الادعاء باطل ؟!

كلمة مولى في حديث الغدير لا تعني "الخلافة"، بل "المحبّة والولاء"..

في اللغة العربية، كلمة مولى لها أكثر من عشرين معنى، منها: المحبّ، الناصر، المعتِق، الوليّ، الصديق... إلخ.. فما الدليل أنّ النبيّ قصد منها الخلافة بالذات ؟

بل السياق التاريخيّ يثبت العكس فقد اشتكى بعض الجنود من عليّ في غزوة

اليمن، فأراد النبي ﷺ أن يُظهر فضل عليّ ومحبّته، فقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه.. أي من كنتُ وليّه ومحبّه، فعليّ أيضا وليّه ومحبّه.

الدليل القرآني: الله تعالى يقول: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ آل عمران ١٥٩

﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** ﴾ الشورى ٣٨

فلو كانت الإمامة نصّا إلهيا لاختيار شخص معيّن، لما أمر الله بالشورى أصلا، ولما اختلف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ.

موقف عليّ رضي الله عنه: هل طالب عليٌّ بالخلافة على أنها حقّ إلهيّ مسلوب ؟

الجواب: أبدا. بل بايع أبا بكر، ثم عمر، ثم عثمان، وقال في نهج البلاغة نفسه: إنّا نرى أبا بكرٍ أحقّ الناس بها بعد رسول الله.. ولو كان يرى أنه منصوص عليه من الله، لما بايع أحدا بعده، لأن هذا يكون خيانةً للأمر الإلهي.

أصل الفكرة: عقيدة "النصّ الإلهي" لم تكن موجودة في القرن الأول، بل ظهرت لاحقا عندما انقسم الشيعة سياسيا بعد مقتل الحسين، فاحتاجوا إلى مبدأ يبرّر حصر القيادة في نسلٍ معيّن، فاخترعوا فكرة (النصّ الإلهي) ليمنحوا الإمامة قداسة سماوية بدلا من الشرعية الشعبية.

إنها عقيدة وُلدت في المعارك السياسية لا في الوحي.

المفارقة: إذا كانت الإمامة ركن الدين بعد النبوّة كما يقولون، فكيف لم يذكرها القرآن صراحة ؟ هل نسي الله أن يقول: يا أيها الذين آمنوا، آمنوا بعليّ إماما بعد نبيّكم ؟ بل القرآن لم يذكر (الأئمة الاثني عشر) ولا أسماءهم ولا وجوب طاعتهم، بينما ذكر الصلاة والزكاة والحج والصيام بالتفصيل !

ولو كانت النصوص صريحة كما تزعمون، فلماذا لم يذكر عليّ نفسه في أي خطبة من خطبه أنه منصوص عليه إلهيا ؟!

بل كان يقول – كما في "نهج البلاغة": «دعوني والتمسوا غيري، فإني لكم وزيرا خير لكم مني أميرا»

هل يقول "المعيَّن من الله" مثل هذا ؟!

ما حدث في السقيفة: توفي النبي ﷺ.. الأنصار قالوا: منا أمير ومنكم أمير.. فقام عمر وقال: من له مثل أبي بكر ؟ صاحب الغار، ثاني اثنين.. فبايعه الناس، ثم بايع عليّ بعد حينٍ طائعا.. بل قال عليّ في نهج البلاغة: إنه بايعني الناس كما بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان.

إذن.. عليّ أقرّ بشرعية الخلفاء الثلاثة.

فإذا كان عليّ يعلم أن الخلافة حقّه الإلهي، فكيف تركها لخلفاء ثلاثة قبله دون قتال ؟ هل كان يخاف ؟ لكنكم تقولون: عليّ أسد الله الغالب ! فكيف يخاف ؟

الدليل الشرعي: النبي ﷺ قال: الأئمة من قريش.. **ولم يقل: من عليّ وحده.**

وقال: اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر.

فمن الذي صدّق كلام النبي ﷺ ؟ أهل السنّة الذين اتبعوه، أم الشيعة الذين كذّبوه

إذن.. لا يوجد نصّ قرآني ولا نبوي على استخلاف عليّ.. عليّ نفسه لم يدّعِ النص ولا رفض بيعة من سبقه.. الاتهام بالاغتصاب تهافت منطقي وتاريخي.. فمن زعم أن الخلافة مغتصبة، فقد كذّب عليّ قبل أن يكذّب أبا بكر !

الشبهة: (عصمة الأئمة)

الأئمة الاثنا عشر معصومون من الذنب والخطأ، ويعلمون ما كان وما يكون وما سيكون.. (وهي الركن العقدي الذي يرفع الأئمة فوق مقام البشر ويجعلهم شركاء لله في صفاته).

الموقف السني والعقلي

من القرآن: القرآن قصر العصمة على الأنبياء في مقام التبليغ، لا في كل فعل بشري: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ طه ٢١

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ الفتح ٢

فكيف تُمنح العصمة المطلقة لبشر غير نبي ؟!!

من العقل: العصمة المطلقة تجعل الإمام فوق النقد والمساءلة، وهذا يهدم مبدأ الاجتهاد ويغلق باب العقل، لأن "كل ما يقوله الإمام حق"، حتى لو خالف القرآن أو الواقع، فيتحوّل الدين إلى "سلطة مقدسة" لا تُراجع !

من التاريخ: لم يَدّعِ أيّ من الأئمة لأنفسهم هذه الولاية، ولم تُنقل عن عليّ أو الحسين أقوال توحي بعلمهم بالغيب أو تصرفهم في الكون.. بل كانوا دائمًا يقولون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الدليل القرآني: القرآن يقول: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ فصلت ٦

فمن خصائص النبي أنه بشر، فكيف يأتي الشيعة بعد ختم النبوة ليمنحوا هذه العصمة لبشر لا يوحى إليه ؟

ثم يقول الله: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ

بِالْيَمِينِ ﴿﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ الحاقة ٤٦

فحتى النبي ﷺ مهدّد بالعقوبة لو أخطأ في الوحي، فمن أين جاء الشيعة بأئمة لا يُتصوّر فيهم الخطأ أصلا ؟!!

المفارقة الكبرى: الإمام عندهم يعلم الغيب، ومع ذلك: لم يعلم عليّ أن ابن ملجم سيقتله ! ولم يعلم الحسين أن جيش كربلاء سيذبحه ! ولم يعلم جعفر الصادق أن بعض أتباعه سيكفرون به ! فهل هذا علم غيب ؟

المفارقة الثانية: لو كان الإمام يعلم الغيب، فما حاجته إلى الدعاء ؟ ولماذا يقول عليّ في "نهج البلاغة": اللهم غفرانك ربنا وإليك المصير.. هل يدعو من يعلم الغيب ويضمن الجنة ؟ أم يدعو من يخاف الله ؟

إذن الإمام نفسه لم يدّعِ العصمة ولا علم الغيب، بل كانوا أتقى الناس.

أصل الفكرة: العصمة والعلم بالغيب ليست عقيدة قرآنية،بل انتقلت من الفكر الزرادشتي والمسيحي الغالي إلى التشيّع:

الزرادشتيون يقدّسون "الأوصياء" بعد زرادشت.

والمسيحيون يؤمنون بعصمة القديسين.

فقلّدهم الشيعة في أئمتهم ! إنها محاولة لإحياء "النبوّة" بلفظٍ جديد: الإمامة.

المأزق المنطقي: إذا كان الإمام يعلم الغيب ومعصوما، فلماذا يحتاج الناس إلى "وحي" أو "قرآن" ؟ يكفيهم أن يسألوه، أليس كذلك ؟ وهذا يعني أن الإمامة تستبدل الوحي بالإمام، فتصبح الرسالة مستمرة إلى ما لا نهاية.

أي أن التشيّع يهدم عقيدة خَتم النبوة من أساسها.

الشبهة: (البكاء الموسمي)

نحن نبكي الحسين ونقيم له المآتم لأنه مظلوم قُتل غدرا، ومن لا يبكي عليه لا يعرف الإيمان.. (مأساة كربلاء وعقيدة عاشوراء) وهي الدراما الكبرى التي بُني عليها الوجدان الشيعي كله، حتى صارت الدين نفسه عند كثير منهم..

الرد العقائدي والمنطقي: نسألهم أولا: هل البكاء عبادة أم عاطفة ؟ إن قالوا: عبادة، فنقول: إذن دينكم قائم على الدموع لا المبادئ. وإن قالوا: عاطفة، فالعاطفة لا تُقاس بالإيمان ولا تُبنى عليها العقائد.

ثم نسأل: هل أمر النبي ﷺ بالبكاء على أحدٍ قُتل بعده ؟ لم يبكِ النبي ﷺ على حمزة في كل عام، ولا أمر الناس بمواكب ولطم.

إذن من أين جاءت هذه.. الشعائر ؟!

الدليل القرآني: القرآن لم يشرع البكاء على الميت بل الصبر:

﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ ﴿﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ البقرة ١٥٥-١٥٧

بل قال النبي ﷺ: ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية. فما تفعله الشيعة في عاشوراء هو إحياء للجاهلية بلباس ديني.

المفارقة التاريخية: الحسين رضي الله عنه لم يخرج ليُقتل، بل خرج يطلب الإصلاح في أمة جده، لكن أهل الكوفة هم الذين بايعوه ثم غدروا به !

فإذا كان الشيعة يحبون الحسين، فليكرهوا أولًا أسلافهم الذين خانوه !

كيف تلطم صدرك وتبكي على جريمة جدك الروحي ؟

لمفارقة الأخلاقية: يقولون: نبكي لأن بكاءنا يطهّرنا من الذنوب.. فنقول: وهل الذنوب تُغسل بالدموع لا بالتوبة ؟ أم صار البكاء صكّ غفران شيعي ؟

أصل الفكرة: النوح على الحسين نشأ بعد القرن الثاني الهجري، واستمد رمزيته من طقوس النواح الفارسي على تموز وإيزد، ثم أُدخلت إلى التشيّع عبر الدولة البويهية الصفوية.. فهي تقليد فارسي سياسي أكثر من كونها شعيرة دينية.

المفارقة السياسية: من الذي استفاد من قصة كربلاء ؟ الحسين قُتل مظلوما، لكن الذي حوّل موته إلى طقس أبدي هو رجال السياسة الصفويون الذين أرادوا أن يجعلوا من المأساة وقودا للهوية الفارسية ضد العرب والخلفاء.. وهكذا تحوّل الدين إلى مسرحية حزن أبدية، يغذيها الخطباء بالدموع ويستثمرها المراجع بالمال.

إذن.. الحسين إمام شهيد لا يحتاج إلى دموعك بل إلى الاقتداء بشجاعته.. من يقتل الحسين حقا هو من يستغل اسمه لابتزاز الناس دينيا.. اللطم لا يمحو الخطايا، بل يُعيد الناس إلى الجاهلية.. ومن يبكي على الحسين في كل عام، ثم يُهمل أوامر الله، فكأنه يقول: اللهم اغفر لي بالدراما !

الشبهة: (المهدي المنتظر والغيبة الكبرى)

الإمام الثاني عشر، مُحَمَّد بن الحسن العسكري، دخل السرداب وهو حي، وسيخرج في آخر الزمان..

وهي حجر الزاوية في العقيدة الإمامية، بل العمود الذي يقوم عليه بقاء المذهب نفسه، لأنها تبرّر غياب الإمام وتفسّر كل فراغ ديني أو سياسي.

الرد العقائدي والمنطقي: هل هذا الإمام موجود حيّ الآن منذ أكثر من ألف عام ؟ فلماذا لا يظهر ولو لثوان ليقيم الحجة على الناس ؟ هل يخاف ؟ أم ينتظر "إشارة الإنترنت" من السرداب ؟ وإن قالوا: الله أخفاه لحكمة.. فنقول: وهل يُخفي الله حجة لا يهتدي الناس بدونها ؟ أليس الله يقول: ﴿ **لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴾ النساء ١٦٥

فأين الحجة إذن ؟ في قم أم في السرداب ؟

الدليل القرآني: الله تعالى قال عن الأنبياء: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ** ﴾.. وقال النبي ﷺ: لو كان موسى حيّا ما وسعه إلا أن يتبعني.. فكيف بمهديّ لم يُبعث ولم يُوحَ إليه ؟

المفارقة التاريخية: لم يَرَ أحد هذا (المهدي) بعينه ! بل وُلد في السر، واختفى في السر، وتوارث وكلاؤه الأموال في السر ! حتى انقسمت الشيعة إلى فرق لأنهم لم يجدوا أثرا له.. فهل الإيمان بشخص مجهول لا دليل عليه عقيدة أم خرافة ؟!

المفارقة المنطقية: يقولون: هو يعلم أحوال الأمة ويرعاها من غيبته..!

فنقول: سبحان الله، إذن الإمام الغائب أكثر رعاية للأمة من الله نفسه ! هل صار

يشرف على كل صغيرة وكبيرة بينما لا يراه أحد ؟

بل الأعجب: يستغيثون به: يا مهدي أدركنا ! فهل هو في السرداب أم عند باب الحرم ؟

وإذا لم يُجِب، قالوا: لم يأذن الله له بالظهور !

فصارت الغيبة عذرا لكل فشل وتناقض.

الأصل التاريخي للفكرة: عقيدة (المخلّص الغائب) ليست جديدة.. فعند الزرادشتيين: "سوشيانس" المنقذ.. فجاء الشيعة ونسخوا الفكرة بصيغة (المهدي الغائب) ليملأ الفراغ بعد انقطاع سلسلة الأئمة.. أي أن العقيدة منقولة ومؤدلجة سياسيا، لا وحيا ربانيا.

المفارقة السياسية: الغيبة الكبرى حلّت لهم كل مأزق !

غياب الإمام ؟ غيبة.

اختلاف الروايات ؟ غيبة.

فساد العلماء ؟ غيبة.

تأخر النصر ؟ غيبة.

إنها ورقة "جوكر" تُستخدم لتغطية كل تناقض في المذهب، فأصبح الدين لا يقوم إلا على الانتظار الأبدي بدل العمل الواقعي.

إذن.. المهدي عندهم لم يُرَ، ولم يُسمع، ولم يُثبت وجوده إلا بالقصص.

من قال إن الأرض لا تخلو من حجة، فليُرِنا الحجة أولا !

والسرداب الذي ينتظرون منه خروجه، صار رمزا لدفن العقل قبل دفن الأئمة.

الشبهة.. الرجعة (فكرة عودة الأئمة والأولياء – إلى الدنيا – قبل القيامة)

وهي من العقائد التي تثير فضول الباحث لأنها تكشف عن عمق البنية الرمزية والوجدانية في المذهب الشيعي.

١) مضمون العقيدة: يعتقد جمهور الشيعة الإمامية أن الله سيُعيد إلى الحياة بعض الأئمة والأولياء، وبعض أعدائهم أيضا، قبل يوم القيامة؛ ليشهدوا نصر الحقّ وانتقام الله من الظالمين.

فيقولون: بعد ظهور المهدي وقبل قيام الساعة، سيعود الحسين وأئمة آخرون، ويُبعث أعداؤهم لينالوا جزاءهم في الدنيا، ثم يُموتون جميعا من جديد قبل البعث الأكبر.

٢) أصل الفكرة: ظهرت فكرة الرجعة في القرنين الثاني والثالث الهجريين، في زمن تصاعد القمع الأموي والعباسي ضد الشيعة.. كانت ردَّ فعلٍ نفسيّا وعقديّا على مأساة كربلاء..

فحين عجز الواقع عن إنصاف الحسين، واصل الوجدان حلم (العودة للانتقام).. أي أن الرجعة بدأت كرمز للعدالة المؤجّلة، ثم تحوّلت مع الزمن إلى عقيدة حرفية عند بعض المدارس.

٣) أدلتهم النقلية: يستدلّون بآيات مثل: ﴿ **وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا** ﴾ النمل٨٣

فيقولون: هذا الحشر الجزئي هو الرجعة.. ويروون أحاديث عن الأئمة تقول إنهم سيعودون ليحكموا الأرض بالعدل، وإن الحسين عليه السلام سيكون أول من

يُبعث.. لكن كل هذه النصوص لا تَرِد بصيغة صريحة في القرآن أو السنة المتواترة، بل هي روايات آحاد أو تأويلات رمزية.

٤) الردّ المنهجي

أ) نقليا: القرآن صرّح بأن البعث العام يكون يوم القيامة فقط: ﴿ **وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** ﴾ الأنبياء٩٥

أي أن من مات لا يعود حتى تقوم الساعة..

ولم يثبت عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة أي إشارة إلى بعث جزئيّ قبل القيامة.. ولو كانت عقيدة أصلية، لما غابت عن الوحي تماما.

ب) عقليا: الرجعة تنقض مبدأ الاختبار الإنساني الواحد: إذ كيف يُبعث الإنسان مرّتين ليُختبر ويُحاسَب مرتين ؟ هذا يجعل الدنيا دار جزاء، بينما هي دار عمل..

ثم إن القول بعودة الأئمة لينتقموا يحوّل الدين من رسالة أخلاقية إلى دراما ثأر كونية، وهذا يعارض جوهر العدل الإلهي الذي لا يعرف العصبيات الزمنية.

ج) فلسفيا: الرجعة تعبّر عن الرغبة في تصحيح التاريخ بتدخل سماوي على الأرض، وهي فكرة نفسية عميقة: أن الإيمان بالمهدي لم يكفِ لإرواء ظمأ العدالة، فاستُدعيت (الرجعة) لتكون المشهد الختامي للثأر الإلهي الكامل.. أي أنها تمثّل اللاوعي الجمعي للمظلومية حين تتحوّل من وجدان إلى عقيدة.

إنها طريقة ذكية للعزاء، لكنها ليست فلسفة للعدل، بل أسطورة للانتقام المؤجّل.. ومع ذلك، لا يمكن إنكار أن الرجعة – بمعناها الرمزي – تعبّر عن أمل الإنسان الأزلي في عودة العدل المفقود، فهي لغة شعرية لاهوتية أكثر منها تقريرا عقائديا.

٦) الموقف الشيعي المعاصر

كثير من المراجع المعاصرين لا ينكرون الرجعة صراحة، لكنهم يميلون إلى تفسيرها رمزيا: أي (عودة الحق بعد موته)، لا (عودة الأجساد من القبور).. وهذا التطور يُظهر أن الفكر الشيعي الحديث يحاول مصالحة الوجدان مع العقل، بتحويل الأسطورة إلى معنى روحي.

إذن.. الرجعة فكرة نشأت من جرح كربلاء، فصارت عزاء ميتافيزيقيا للعدالة الغائبة.. لكنها من حيث المنهج العقائدي، تفتقر إلى النصّ القطعي والعقل المنسجم، ولا تثبت كأصل من أصول الدين، بل كلغة رمزية للانتظار.

ابن سبأ وحقائق أخرى (تجعل الشيعة تشعر بالخجل)

من بين الشخصيات المثيرة للجدل يبرز اليهودي عبد الله بن سبأ.. وقد تجنبت ذكره في أول البحث – مع أن التريب الزمني كان يستدعي ذلك، فهو أول من قال بالرفض، وأول من زرع الفتنة بين المسلمين.. وقد كان يُظهر الإسلام ويبطن اليهودية.. وأراد أن يفعل بالمسلمين فعل بولس في النصارى – لأن بعض الشيعة المعاصرين يتبرأون منه ويصورونه كأسطورة تشوه المذهب، فعرضت المذهب ابتداء؛ لاثبات أن التشوّه داخلي وذاتي.

احتل هذا المنافق موقعا بارزا في كتب الشيعة القديمة:

يقول أبو عمرو الكشي (ت ٣٦٩ هـ)، من أبرز علماء الرجال عند الشيعة الإمامية: " عبد الله بن سبأ، غالٍ في علي، كان يزعم أنه نبي، وأن علياً وصيه، فأخذه علي فسأله عن قوله هذا، فأقر به، فأمر بنفيه إلى المدائن ". (رجال الكشي صـ١٠٣)

الكشي ينقل هذا عن الإمام علي نفسه، ويصنف ابن سبأ ضمن الغلاة (الذين بالغوا في تقديس الأئمة)، ويؤكد أن علياً نفاه.

ويقول الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ)، أحد أعمدة الفقه والكلام الشيعي: " وكان من الغلاة عبد الله بن سبأ، وكان يدعي النبوة وأن أمير المؤمنين وصيه، فأظهر أمير المؤمنين التبري منه، ونفاه إلى المدائن ". (الإرشاد، ج١ صـ٣٠١)

وهنا المفيد لا يشكك في وجود ابن سبأ، بل يؤكد أن علياً تبرأ منه ونفاه.

ويقول مُحَمَّد بن إبراهيم النعماني (ت ٣٦٠ هـ)، من علماء الحديث الشيعي: " عبد الله بن سبأ، وهو أول من أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة، وتبرأ

منهم، وادعى أن علياً أمره بذلك ". (الغيبة للنعماني صـ١٣٠)

ويقول المجلسي (ت ١١١٠ هـ)، صاحب أكبر موسوعة حديثية شيعية: " عبد الله بن سبأ، كان يهوديا من صنعاء، أسلم في زمن عثمان، وكان أول من أظهر القول بالرجعة، وادعى الوصية لعلي، فتبرأ منه علي ونفاه ". (بحار الأنوار ج٢٥ صـ٢٨٦)

وهكذا.. فإن هذه الشهادات من كبار علماء الشيعة تشير إلى أن ابن سبأ لم يكن شخصية خرافية كما يزعم المتسترون على فضيحة تاريخهم وبذرة ضلالهم، بل كان شخصية مركزية في الروايات.. فالإنكار الحديث لوجود ابن سبأ ليس نابعا من جهل بالمراجع، بل من خجل يعتمل في النفوس الشيعية المعاصرة من ربط بذرة المذهب بما يصفه البعض باليهودية المستترة..

المراجع القديمة إذن تؤكد عليه، لكن العقل النقدي المعاصر، خصوصا في الدراسات الشيعية الحديثة، لا يقبل بسهولة روايات تُظهر الشخصيات الدينية في أدوار مثيرة للجدل.. هنا يظهر الصراع بين حقيقة الرواية التاريخية وحاجة المذهب إلى تصحيح صورته أمام النقد العصري.. فإنكار بعض المعاصرين يعكس صراعا بين التمسّك بالموروث الشيعي القديم وبين رغبتهم في جعل المذهب "مقبولا أكاديميا" أمام الدراسات الحديثة.. كما أن التعامل مع شخصية مثل ابن سبأ يمكن أن يكون حساسا لأنه يرتبط بجدليات حول الإمامة، الغلو، الرجعة، وغيرها من المفاهيم.

ومن الحقائق الأخرى التي تجعل الشيعة تشعر بالخجل

حقائق أن التشيّع المذهبي أبعد ما يكون عن أولئك الصفوة – من الصحابة وآل البيت – الذين جمعهم الله على الحق، وامتزجت أرواحهم بالمودة والإيمان قبل أن

تمتزج أنسابهم بالمصاهرة والولاء.

فالإمام جعفر الصادق – إمام أهل البيت وعالم زمانه – كانت أمُّه فاطمة بنت القاسم بن مُحَمَّد بن أبي بكر الصديق، وجدته هي أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر. ولذلك كان يقول مفتخرا: «ولدني أبو بكر مرتين».

وهكذا اجتمع في نسبه نورُ النبوة وصدقُ الصديقية، ليكون رمزا لوحدة الأصل وصفاء النية.

أما علي بن أبي طالب ﷺ فكان في أيام خلافة أبي بكر من أعمدة الدولة وقادة الجهاد، بعثه الخليفةُ **قائدا للجيوش** في حروب الردة، فحمل راية الإسلام دفاعا عن الأمة ووحدتها. فأين ما يزعم المفترون من صراع على الخلافة وعداوة موهومة ؟

ثم زوَّج عليّ ابنته أم كلثوم من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، وما كان ليفعل ذلك لو وُجد في قلبه مثقال ذرة من غلّ أو خلاف.. بل لما خرج عمر لاستلام مفاتيح بيت المقدس، استخلف عليّا على المدينة، فأين الصراع، وأين العداوة.

وكذلك كان بين الحسن بن عليّ ومعاوية بن أبي سفيان ما كان من خلاف سياسيّ زال بالحكمة وسُموّ النفس؛ إذ تنازل الحسن عن الخلافة لما رأى أن مصلحة الأمة في اجتماع كلمتها، فسُمّي ذلك العام عام الجماعة.. ولو كانت الإمامة نصّا إلهيا كما يزعمون، لما جاز له أن يتنازل عنها، لكنه ﷺ قدَّم المصلحة العظمى على كل اعتبار، وعلَّم الدنيا أن الدين لا يُبنى على التنازع بل على التنازل لله.

بل إن الحسين بن عليّ نفسه زوَّج ابنتيه من رجلين من بني أمية من نسل عثمان بن عفان ﷺ.

هكذا كان جيل الصحابة وآل البيت.. رحماء بينهم، كما وصفهم الله.. ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ** ﴾ الفتح ٢٩

متحابون في الله، متصافون في القلوب..

﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ الحشر ١٠

فهل آنَ لنا أن نتعلّم الدرس..

إنّ التأمل في سير الأولين من آل البيت الكرام يبدّد كلّ ظلمة نسجتها الأهواء حول العلاقة بين الصحابة وآل بيت النبي ﷺ. فالحقيقة الناصعة تقول: لقد كان بينهم من المحبة والتقدير والتواصل ما يعجز اللسان عن وصفه.. وها هي صفحات التاريخ تنطق بالحق، وتشهد بأن أئمة الهدى من آل بيت النبوة كانوا يتخذون من أسماء الخلفاء الراشدين وأمهات المؤمنين شعارا لهم وسَمْتا يقتدون به.

فهذا عليّ بن أبي طالب ﷺ، الذي يزعم بعض الناس أنه كان في خصومة مع الخلفاء قبله، سمّى ثلاثةً من أبنائه بأسماء أبي بكر، وعمر، وعثمان، وما كان ليفعل ذلك لو كان في صدره غِلّ أو خلاف، بل كان ذلك برهان المحبة والوفاء.

وهذا الحسين بن عليٍّ ﷺ سمّى أحد أبنائه عمر، والحسن بن عليّ سمّى ابنه أبا بكر، ليبقى الاسم الكريم شاهدا على وحدة الصف ومودة القلوب.

وفي القاهرة مسجدٌ يعرف بـ مسجد السيدة عائشة ﷺ، وهي بنت الإمام جعفر الصادق، وأخت الإمام موسى الكاظم.. فهل يعقل أن الإمام جعفر نفسه – الذي يُنتسب إليه الجعفرية – يُسمّي ابنته عائشة، تيمّنا باسم أم المؤمنين ﷺ، ثم يأتي قوم

من بعده فيعادون من أحبها وسماها ؟

والإمام موسى الكاظم سمّى ابنه عمر، وسمّى ابنته عائشة، وعليّ الرضا سمّى ابنته عائشة، وعليّ الهادي سمّى ابنته عائشة.

هكذا توارث آل البيت أسماء الصحابة حبّا وتقديرا، يعطرون بها بيوتهم، ويورثونها أبناءهم، وكأنهم يعلنون للأمة أن المودة بين آل مُحَمَّد وصحابة مُحَمَّد ﷺ إنما هي أصل في الدين، لا يُمحو أثرها بتأويلات ولا يطعن فيها غلوّ ولا هوى.

فهل نجد اليوم – مِن الشيعة – مَن يسمي أبناءه أبا بكر أو عمر أو عثمان، أو يسمي ابنته عائشة، كما فعل الأئمة الأطهار ؟!

أم أن آل البيت في وادٍ من الصفاء، والذين ينتحلون حبهم في وادٍ آخر من الجفاء ؟

ثم انظر إلى الاصطفاء الإلهي البديع من بين أصحاب النبي أجمعين، لم يُؤمّ الناس في غيابه إلا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، **وذلك بأمر النبي ﷺ نفسه**، في مرضه الذي توفي فيه. ومن بين العالمين أجمعين، لم يُقدَّر لأحد أن يُدفن بجوار رسول الله ﷺ إلا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ليظلّ القبر الشريف شاهدا على المحبة التي لا تُنكر، والاصطفاء الذي لا يُكذَّب.

وكفى بهذه الآية دليلا.. ﴿ **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾

التوبة ٤٠

ذلك "الصاحب" هو الذي صحب النبي ﷺ في الغار، وصحبه في الهجرة، وصحبه في الصلاة، وصحبه في القبر.

فأيُّ اصطفاء أعظم من أن يكون مع رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة.

اللحظة التي واجهت فيها الفكرة الأصلية واقعا لم يطابق التوقع

كيف اصطدمت الفكرة بالتاريخ، وكيف أنقذتها "الأفكار الإسعافية" حتى انتهت إلى.. أزمة النص والعقل؟!

البحث ليس عن أول شيعي، بل عن أول فكرة.. لقد تشكلت الجماعات الشيعية تدريجيا، ثم تفرعت إلى الكيسانية والإمامية والزيدية والغلاة، ثم انشقت الإمامية نفسها إلى فروع إسماعيلية واثني عشرية وغيرها؛ ولهذا فالسؤال الأهم ليس: متى ظهر التشيّع؟ بل: متى تحولت محبة أهل البيت، أو القول بأولوية علي، إلى نظرية دينية تقول إن الله أقام بعد النبي ﷺ إماما معصوما منصوصا عليه، وأن الهداية لا تتم إلا بمعرفته؟ هنا تبدأ الورطة.. فقد تكون محبة علي حقا، وقد يكون لعلي من الفضائل ما لا يختلف فيه مسلمان، وقد يكون الظلم الواقع على الحسين من أعظم مآسي التاريخ الإسلامي؛ لكن لا يلزم من ذلك كله أن تكون هناك سلسلة من الأئمة المعصومين بعد خاتم الأنبياء ﷺ.. وهذه هي الزيادة التي ستصنع الشجرة كلها.

أولا: الفكرة الأم.. كانت الفكرة في صورتها الأولى بسيطة: علي من أهل بيت النبي ﷺ، ومن كبار الصحابة، وله من الفضل والمنزلة ما له.. ثم دخل العامل السياسي: علي أولى بالخلافة.. ثم وقع التحول: علي لم يكن أولى سياسيًا فحسب، بل كان هو الإمام الذي أراده الله.. ثم جاءت الخطوة الأخطر: الإمام منصوب من الله، معصوم في الدين، واجب الطاعة، وهو حامل الحقيقة بعد النبي.. هنا تغير السؤال كله.

لم يعد السؤال: من الخليفة؟ بل أصبح: من هو الشخص الذي جعل الله له حقا

دينيا خاصًا بعد النبي؟

وهذه النقلة تحتاج إلى دليل من نوع مختلف تماما؛ فإذا كان الأمر مجرد فضل أو أولوية سياسية، فالنقاش تاريخي وفقهي.. أما إذا كان منصبا إلهيا، فلابد من نص إلهي واضح.. ومن هنا ستنشأ ورطة النص.

ثانيا: ورطة النص.. لنضع المشكلة في أبسط صورة: إذا كان الله قد جعل بعد خاتم الأنبياء إماما معصوما، فهناك سؤال لا يمكن الهروب منه: كيف تعرف الأمة هذا الإمام؟ لا يكفي أن تقول: "هو من أهل البيت".. فأهل البيت متعددون، ولا يكفي: "هو من ذرية علي".. فالذرية كثيرة، ولا يكفي: "هو أعلمهم".. فمن الذي يحدد أعلمهم؟ ولا يكفي: "الإمام السابق نص عليه"؛ لأننا نحتاج أولا إلى إثبات أن السابق نفسه إمام منصوب من الله، ثم إثبات صحة النص عنه، ثم إثبات أن النص وصل إلينا صحيحا.

ومن هنا تتشكل الدائرة: النص يثبت الإمام، والإمام يفسر النص، ثم يصبح قول الإمام دليلا على صحة النص الذي أثبت إمامته.

وهذه هي بداية أزمة المعرفة.. ولو كان النص المؤسس في غاية الوضوح، لما كان التاريخ الشيعي المبكر قد شهد هذا العدد الهائل من الجماعات التي كل واحدة منها تقول: الإمام الحقيقي هو فلان، والنص عندنا.

لكن التاريخ حدث فيه العكس، وهنا لا نحتاج إلى اتهام كل فرقة بالكذب حتى ندرك المشكلة.. يكفي أن نلاحظ: إذا كان الأصل الذي يُفترض أنه إلهي واضحا، ثم اختلف أتباعه في تعيين صاحبه اختلافا أنتج عشرات الفرق، فإن الوضوح الذي

تحتاج إليه النظرية لم يكن موجودا في مستوى الإثبات الذي تستطيع الأمة كلها الاحتكام إليه.

ثالثا: كربلاء – حين تحولت المأساة إلى بنية عقدية.. كان مقتل الحسين رضي الله عنه سنة ٦١هـ حدثًا بالغ التأثير في الوجدان الإسلامي، ثم أصبح عنصرا مركزيا في تشكل الهوية الشيعية، وبعده لم يعد الحديث عن "أهل البيت" حديثا عن القرابة والفضل فقط، بل دخلت إليه بقوة فكرة المظلوم صاحب الحق الإلهي.. وهنا وقع أول تصادم بين الفكرة والتاريخ: إذا كان الحسين هو الإمام الإلهي، فقد قُتل.. فكيف يستمر مشروع الإمامة؟ وهنا ظهر الحل الأول: المهدي.

رابعا: الكيسانية – أول إنقاذ إسعافي كبير.. بعد مقتل الحسين، ظهر المختار الثقفي في الكوفة، واجتمعت حوله حركة ارتبطت بمحمد بن الحنفية، ابن علي غير ابن فاطمة، ثم تشكلت "الكيسانية" التي جعلت مُحَمَّد بن الحنفية إماما، بل ومهديا، وتطورت عند بعض أتباعها فكرة غيبته وانتظار عودته.. لاحظ البناء: المشكلة: الإمام المنتظر مات أو غاب.

الحل: لم يمت، بل غاب.

لكن هذا الحل أنقذ الفكرة من أزمة وخلق أزمة جديدة: إذا كان الإمام حاضرا في الدين وغائبا عن الناس، فكيف يقوم بوظيفة الهداية؟

ثم مات مُحَمَّد بن الحنفية فعلا، فواجه أتباعه أزمة ثانية.. وهنا تفرعت الكيسانية إلى جماعات متعددة، واختلفت الروايات في تفاصيلها، لكن الاتجاه العام واضح: كل أزمة في الشخص الإمام كانت تنتج تفسيرا جديدا لبقائه.. وقد انقسمت الكيسانية

بعد بيعة مُحَمَّد بن الحنفية للأمويين ثم بعد وفاته، وانتهت كحركة مستقلة تقريبا.

وهنا وُلدت إحدى أهم أدوات التشيع اللاحق: الغَيبة.

خامسا: الغلاة – عندما يصبح الإمام أكبر من الإمام..! في البيئة نفسها ظهر الغلو، ومن أشهر التيارات المبكرة: السبئية.. الكاملة.. المغيرية.. البيانية.. المنصورية.. الخطابية... وغيرها من الفرق التي نسبت إلى الأئمة أو بعض الشخصيات خصائص فوق بشرية..[1] ومع ذلك فوجود ظاهرة الغلو نفسها ثابت، وكانت فكرتها المركزية أن الإمام ليس مجرد عالم أو قائد، بل يحمل سرا أو نورا أو خصائص تتجاوز الطبيعة البشرية.

فالغلاة نسبوا إلى الأئمة صفات فوق بشرية، بل ألوهية أحيانا، وبعض هذه الأفكار سيجد طريقه لاحقا إلى تيارات إسماعيلية وباطنية.. وهنا تتدرج الفكرة: الإمام أفضل.. ثم: الإمام معصوم، ثم: الإمام يعلم ما لا يعلمه الناس، ثم: عنده علم باطني، ثم: فيه نور إلهي، ثم عند بعض الغلاة: هو مظهر للإله أو تجلٍّ له.. وهكذا تحولت العصمة من وسيلة لحفظ الدين إلى باب لإعادة تعريف طبيعة الإنسان نفسه.

سادسا: الكيسانية نفسها كانت إنذارا مبكرا.. الكيسانية مهمة للغاية؛ لأنها كشفت المشكلة قبل أن تتعقد.. فإذا كانت الإمامة أصلًا إلهيًا لا يجوز أن يضل

---

[1] قوائم الفرق الغالية نقلها في الغالب أصحاب المقالات والفرق، وكثير من التفاصيل الواردة عنهم يحتاج إلى نقد؛ بل تنبه الدراسات الحديثة إلى أن المصادر الهَرَسِيُوغرافية نفسها متحيزة، ولذلك لا يصح ابتلاع كل رواية عنها كما هي.

فيه الناس، فلماذا مات الإمام المزعوم قبل أن يتحقق الوعد؟

كان يمكن أن يكون الجواب البسيط: إذن لم يكن هو الإمام الذي ظنناه.

لكن هذا الجواب يهدم النظرية.. فكان الأسهل: لم يمت.

ومن هنا صار التاريخ نفسه يحتاج إلى إعادة تفسير كيلا تسقط العقيدة، وهذا هو أول ظهور واضح للقاعدة التي ستلازم كثيرا من تاريخ الفرق: إذا تعارضت الفكرة مع الواقع، فليُعاد تفسير الواقع بدل مراجعة الفكرة.

سابعا: الزيدية – تخفيف الأزمة لا حلها.. ثم جاء زيد بن علي سنة ١٢٢هـ، وتكونت حوله الزيدية.. والزيدية ليست كالغلاة، ولا كالإسماعيلية، ولا كالإمامية الاثني عشرية.. فقد جعلت الإمامة في ذرية علي وفاطمة، مع اختلافات كبيرة في شروطها وطبيعتها، وارتبطت عندها بالعلم والخروج والقيام؛ ولهذا كانت أقرب من غيرها إلى التشيع السياسي الناشط. لكنها واجهت المشكلة نفسها: من هو الإمام؟ فنشأت داخل الزيدية اتجاهات مثل: الجارودية.. السليمانية.. البترية/الصالحية، واختلفت هذه الاتجاهات في مسائل الإمامة، وفي تقييم الصحابة، وفي شروط الإمام.. إذن حتى حين خففت الزيدية من الغلو، لم تحل ورطة النص.

لقد استبدلت: الإمام المعين الغائب.. بـ: الإمام الذي تتوافر فيه شروط معينة ويخرج.

لكن بقي السؤال: من الذي جعل الإمامة أصلا إلهيا مخصوصا بآل البيت؟

ثامنا: الإمامية – تحويل الإمامة إلى سلسلة.. في المسار الآخر تطورت الإمامية.. وصارت الفكرة أكثر إحكاما: علي.. ثم الحسن.. ثم الحسين.. ثم علي بن

الحسين.. ثم مُحَمَّد الباقر.. ثم جعفر الصادق... وهنا أصبح الموت نفسه امتحانا للنظرية؛ لأن السؤال يعود بعد كل وفاة: من الإمام بعده؟ ولهذا ظهرت جماعات كثيرة حول الأئمة.

عند وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ، مثلًا، انقسم أتباعه إلى عدة مجموعات، ومن بينها جماعات إسماعيلية مبكرة،[١] وأن هذه الجماعات اتخذت إسماعيل بن جعفر أو ابنه مُحَمَّد محورا لها، بينما أنكرت جماعة موت إسماعيل وانتظرت رجوعه مهديا.

لاحظ مرة أخرى: موت الإمام.. مشكلة النص.. اختيار إمام جديد.. انقسام.

تاسعا: الإسماعيلية – حين أصبح "الباطن" حلًا لمشكلة "الظاهر".. خرجت الإسماعيلية من رحم الإمامية، ثم أصبحت منظومة واسعة ذات تاريخ وفلسفة ودعوة ودولة، وليست مجرد فرقة صغيرة. وقد انقسمت لاحقا إلى فروع كبرى، أبرزها النزارية والمستعلية، وتفرعت المستعلية إلى الطيبية وغيرها.. لكن الأهم فكريا هو ما حدث للنص.. إذا كان الإمام هو صاحب العلم الحقيقي، فما موقع النص الظاهر؟ هنا نشأت الباطنية.. ظاهر النص للعامة، وباطنه لا يعلمه إلا أهل المعرفة، وعلى رأسهم الإمام. هذا التصور كان جوهريًا لدى عدد من الفرق ذات الجذور الشيعية منذ القرن الثاني الهجري، وهنا حدث انقلاب معرفي: في الإسلام: النص هو الذي يحاكم الرجال.. أما في البناء الباطني: الرجل الذي يحمل السر هو الذي يكشف للنص معناه الحقيقي..!! وهذا فرق هائل.. فإذا قال القرآن شيئا ظاهرا، ثم قال

[١] تشير المصادر إلى أن أتباع جعفر الصادق انقسموا إلى ست مجموعات.

الإمام إن المراد شيء آخر، فمن الذي يحسم؟ نعم، الإمام..! ولأن الإمام هو الذي يملك "الباطن"، أصبح الاعتراض على التأويل اعتراضا على الإمام، والاعتراض على الإمام جهلا بالباطن.. وهنا تغلق الدائرة على نفسها.

عاشرا: القرامطة – عندما خرج الباطن من التأويل إلى الثورة.. لم يبق الباطن مجرد تفسير.. نشأت الدعوة الإسماعيلية السرية، ثم ظهرت القرامطة، وظهرت في البيئة الإسماعيلية المبكرة تصورات عن الإمام والدعوة والتاريخ الدوري والتأويل الباطني، ثم انقسم الإسماعيليون أنفسهم في مراحل مختلفة، وكان من أعظم انقساماتهم الانقسام الذي فصل جماعات القرامطة عن الخط الفاطمي.. وهكذا أصبح لدينا: الإمام.. الدعوة السرية.. الباطن.. إعادة تفسير الشريعة.. مشروع سياسي ثوري.

وهذا المسار يوضح كيف يمكن لفكرة الإمام صاحب المعرفة الباطنة أن تنتج نظاما دينيا مختلفا جذريا عن مجرد التشيع السياسي الأول.

الحادي عشر: الإسماعيلية الفاطمية – الإمام حاكم ودليل.. عندما قامت الدولة الفاطمية سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م، تحولت الدعوة الإسماعيلية من حركة سرية إلى دولة كبرى.. وهذا مهم جدا؛ فالفكرة التي نشأت لتفسير: "من الإمام؟".. أصبحت تملك دولة تقول: هذا هو الإمام، وهكذا عاد السؤال القديم في صورة جديدة: الإمام ليس مجرد حاكم؛ الحاكم هو الإمام.

ثم مات الخلفاء (الأئمة)، وحدثت الانقسامات.

الثاني عشر: الانقسام المستعلي – النزاري.. بعد وفاة المستنصر بالله سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م انقسم الإسماعيليون الفاطميون إلى: مستعلية، و: نزارية.

كل فريق قال إن الإمام الحقيقي هو الذي اختاره النص السابق.

أي أن المشكلة الأصلية عادت بكامل قوتها: من الذي عُيّن؟ وكل فريق يملك روايته.. ثم انقسم المستعلية إلى فروع، أبرزها الطيبية، وتطورت داخلها مؤسسات دينية خاصة.. أما النزارية فارتبط تاريخها بحسن الصباح ودولة ألموت، ثم تطورت لاحقا إلى أشكال أخرى من الإسماعيلية.. وهكذا تستطيع أن ترى الشجرة: إمام واحد.. موت.. اختلاف في النص.. إمامان.. كل إمام له أتباع.. كل أتباع يملكون تفسيرًا.. فرق جديدة.

الثالث عشر: الاثنا عشرية – الحل الأكبر لمشكلة النص.. ثم نصل إلى الإمامية الاثني عشرية، هنا حدثت محاولة مختلفة لحل المشكلة: لا نترك الإمامة مفتوحة، بل نحددها في اثني عشر شخصا..!

وبذلك ينتهي سؤال: من بعد جعفر؟ ومن بعد موسى؟ ومن بعد علي الرضا؟ ومن بعد الحسن العسكري؟

لكن ظهر سؤال أخطر: أين الإمام الثاني عشر؟ مات الحسن العسكري، ولم يكن له ـ بحسب الرواية الإمامية ـ ابن ظاهر يعيش حياة عامة.

إذن: النص يقول بوجود الإمام.. والواقع لا يراه.. فما الحل؟ الغيبة.

وهكذا أصبح لدينا: إمام موجود في الحقيقة، لكنه غير موجود في التجربة التاريخية العامة.. وقد أصبحت غيبة الإمام الثاني عشر سنة ٢٦٠هـ/٨٧٤م مركزا حاسما في تطور الاثني عشرية، ثم احتاجت الإمامية إلى بناء نظام ديني جديد للتعامل مع زمن الغيبة.

الرابع عشر: من الإمام الغائب إلى الفقيه الحاضر.. وهنا تقع مفارقة شديدة.. الفكرة الأصلية تقول: لا بد من الإمام المعصوم حتى لا يضل الناس، ثم أصبح الإمام: غائبا.. فمن يتولى الناس؟ ظهر دور العلماء.. ثم تطورت داخل الإمامية مدرستان كبيرتان:

الأخبارية.. التي جعلت أخبار الأئمة أساس المعرفة الدينية.

والأصولية.. التي طورت أدوات الاجتهاد والأصول والفقه في عصر الغيبة.

فأدت غيبة الإمام إلى تصاعد التيار العقلي والأصولي في مواجهة المدرسة الأخبارية، كما أن علماء مثل المفيد والمرتضى والطوسي أدخلوا عناصر عقلية وكلامية، منها عناصر متأثرة بالمعتزلة، في بناء الإمامية.

وهنا تظهر نتيجة مذهلة: العقيدة التي قالت إن العقل لا يستغني عن الإمام المعصوم اضطرت، في غياب الإمام، إلى تطوير عقل مذهبي يعوض غيابه.. أي أن العقل الذي كان متهمًا بالعجز عن الوصول إلى الحقيقة دون الإمام أصبح هو الأداة التي تحاول تفسير: وجود الإمام، وغيبته، ووظيفته، ونوابه، وأحكام عصر الغيبة..!!

الخامس عشر: المدرسة الأخبارية والأصولية – أزمة العقل داخل المذهب.

الأخبارية تقول: خذوا عن الأئمة.

الأصولية تقول: الأئمة غائبون، ولا بد من اجتهاد العلماء.

فالسؤال الذي يعود هنا: إذا كان قول الإمام المعصوم هو مصدر الحقيقة، فمن أين جاء حق الفقيه في إنتاج حكم ديني في زمن غياب الإمام؟

وإذا قيل: الفقيه يستنبط من النصوص.. عاد السؤال الأول: فلماذا احتجنا أصلا إلى الإمام المعصوم؟ وإذا قيل: الفقيه نائب عن الإمام.. عاد السؤال: أين النص القطعي الذي جعله نائبًا؟

وهكذا تظل ورطة النص تعمل حتى داخل البناء الذي حاول حلها.

السادس عشر: الغيبة الكبرى صنعت مشكلة لم تكن موجودة في الفكرة الأولى.. قبل الغيبة كان يمكن أن تقول: الإمام موجود، اذهب إليه.

بعد الغيبة الكبرى لم يعد هذا ممكنًا، فنشأ السؤال: من يمثل الإمام؟ ثم: من يملك حق الاجتهاد؟ ثم: من يقلده الناس؟ ثم: من يملك السلطة؟ وهكذا ظهرت طبقات العلماء والمرجعية، حتى أصبحت الإمامية الحديثة ذات بنية علمائية هرمية واسعة.. فالفكرة التي قيل إنها تمنع اختلاف الأمة احتاجت بعد غياب الإمام إلى مؤسسة دينية ضخمة لإدارة الاختلاف..!

السابع عشر: النص مرة أخرى – ولكن هذه المرة داخل كتب الحديث.. هنا تظهر مشكلة أخرى: إذا كان الإمام معصومًا، فكل قوله حجة.. لكن الإمام غائب.. إذن نحتاج إلى: روايات عنه.. ومن أين تأتي الروايات؟ من الرواة.. ومن يثبت الرواة؟ علم الرجال.. ومن يثبت الحديث؟ علم الحديث.. ومن يفهم الحديث؟ الفقيه.. ثم: من يفصل بين الروايات المتعارضة؟ الفقيه.. فتعود السلطة البشرية إلى قلب النظام الذي أقيم أصلًا لتجاوز محدودية البشر..! وهذا لا يعني أن علماء الإمامية لم يبذلوا جهودًا علمية؛ بل فعلوا، ونشأت لديهم علوم حديث ورجال وأصول وفقه وكلام متطورة.. لكن المشكلة الفلسفية باقية: إذا كان سبب الحاجة

إلى الإمام هو أن البشر لا يملكون العصمة الكافية لحفظ الدين، فكيف أصبح حفظ الدين في عصر الغيبة متوقفا على سلسلة بشرية غير معصومة من الرواة والمحققين والمجتهدين؟

الثامن عشر: النص المتأخر ومشكلة إعادة بناء الماضي.. هنا نصل إلى نقطة حساسة للغاية.. كلما تأخر تدوين العقيدة، ازدادت الحاجة إلى إثبات أن العقيدة كانت موجودة منذ البداية.. فإذا ظهرت عقيدة في القرن الثالث أو الرابع، أصبح من الضروري أن يقال: كانت موجودة عند جعفر.. وإذا كانت عند جعفر: فهي عند الباقر.. وإذا كانت عند الباقر: فهي عند الحسين.. وإذا كانت عند الحسين: فهي عند علي.

وهكذا يُعاد بناء الماضي بحيث يصبح مطابقا للحاضر..!

وهذه ليست مشكلة شيعية وحدها؛ فكل فرقة قد تقع في إسقاط صورتها المتأخرة على بدايتها.. لكنها في نظرية الإمامة أشد خطورة؛ لأن صحة المذهب تتوقف على أن يكون التسلسل نفسه منصوصا عليه منذ البداية.

فإذا لم يكن، أصبح كل جيل محتاجا إلى إعادة اكتشاف "النص القديم".

وهنا يصبح التاريخ نفسه ساحة صراع مذهبي.

التاسع عشر: النُّصيرية – عندما ينتهي الباطن إلى دين آخر.. من أخطر النتائج المتطرفة لهذا المسار.. النصيري/العلوي القديم.. مُحَمَّد بن نصير ارتبط بالبيئة الإمامية في القرن الثالث الهجري، وتطورت حوله جماعة غالية، ثم أصبحت النُّصيرية مذهبًا ذا بنية خاصة شديدة التركيب، متأثرة بالشيعة وبعناصر دينية أخرى.. وفي بعض

صور العقيدة النصيرية: علي: المعنى الإلهي.. مُحَمَّد: الاسم.. ثم تأتي مراتب أخرى، وهنا لم تعد الإمامة مجرد خلافة دينية، لقد أصبحت أنطولوجيا: ما حقيقة الله؟ ما حقيقة مُحَمَّد؟ ما حقيقة علي؟ وهذه هي اللحظة التي يصبح فيها السؤال السياسي الأول قد ذاب تماما داخل تصور ديني جديد.

العشرون: الدروز – حين يخرج الباطن من الإسلام نفسه.. الدروز خرجوا من البيئة الإسماعيلية الفاطمية في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وتكونت عقيدتهم في سياق الدعوة المرتبطة بالحاكم بأمر الله وحمزة بن علي.. وهنا نرى نهاية أخرى للمسار: الإمام.. الباطن.. التأويل.. التجلي.. منظومة دينية مستقلة.

فلم يعد السؤال: من الإمام؟ بل: ما حقيقة التاريخ الديني كله؟

وهكذا يتحول "الإمام" من شخص إلى مفتاح لفلسفة كونية كاملة.

الحادي والعشرون: الفرق العلوية والباطنية الأخرى.. لا تنتهي الشجرة هنا.. فهناك: الغلاة الأوائل.. الخطابية.. الإسحاقية.. النصيرية.. فرق علوية وغالية أخرى.. جماعات باطنية خرجت من بيئات إسماعيلية.. القرامطة.. فروع إسماعيلية نزارية ومستعلية وطيبية.. مدارس ومذاهب اندثرت ولم يبق منها إلا ذكرها في كتب الفرق؛ ولهذا فإن محاولة اختزال تاريخ التشيع في: اثني عشرية.. إسماعيلية.. زيدية، تفقد نصف القصة.

الثاني والعشرون: ومن الضروري ألا نظلم الزيدية.. الزيدية مثال مهم لأنها تكشف أن الطريق لم يكن حتميا إلى الباطنية؛ لكنها مع ذلك بقيت داخل سؤال: لماذا تكون الإمامة في ذرية معينة؟ فهي تمثل محاولة لتصحيح الأزمة من داخل الفكرة:

بدل الإمام الغائب: الإمام القائم.

بدل السلسلة السرية: الإمام العالم الذي يخرج.

لكنها لم تحذف أصل المشكلة: تخصيص الإمامة الدينية بآل البيت؛ ولهذا بقيت في مدار التشيع وإن اختلفت جذريا عن الاثني عشرية في قضايا كثيرة.

الثالث والعشرون: الكيسانية والغلاة والإسماعيلية والاثنا عشرية... كلهم أمام المرآة نفسها.. إذا وضعنا الفرق كلها أمام سؤال واحد: ماذا تفعل عندما يموت الإمام الذي تقول إنه إمام الله؟ ستجد إجابات مختلفة:

الكيساني: هو المهدي، وقد غاب.

الواقفي: توقف عند هذا الإمام، فهو القائم.

الإسماعيلي: النص كان على إسماعيل أو ذريته.

الإمامي الاثنا عشري: النص انتهى إلى الثاني عشر، وهو غائب.

الزيدي: الإمام هو من توافرت فيه الشروط وخرج.

المغالي: الإمام يحمل السر الإلهي.

الباطني: الإمام يكشف الباطن.

كل واحد منهم حاول حل المشكلة.. لكن كل حل كان ينتج نسخة جديدة من المشكلة..!

الرابع والعشرون: الوقفية – حل الموت بإنكار النهاية.. ومن أهم الفروع التي تكشف آلية التفكير هذه: الواقفة.. فقد توقفت جماعة عند موسى الكاظم، وقالت إنه المهدي أو أنه لم يمت على الوجه الذي يقول به الآخرون، وهذه الظاهرة ليست

هامشية؛ فحتى داخل التاريخ العلوي/الإمامي ظهرت جماعات جعلت وفاة الإمام نفسه أزمة عقدية، مثل الواقفة التي قالت بانتهاء الإمامة عند موسى الكاظم واعتبرته المهدي.

وهنا يمكن صياغة القانون: كلما مات الإمام، أصبح الموت امتحانا للعقيدة؛ وكلما كان الاعتراف بموته يهدم السلسلة، أصبح الإنقاذ في القول بالغَيبة أو الرجعة أو انتقال الإمامة إلى شخص آخر..!

الخامس والعشرون: من الغيبة إلى الرجعة.. وهنا تولدت فكرة أخرى: الرجعة.. إذا لم يتحقق وعد الإمام في حياته: فهو سيعود..! وهكذا يصبح المستقبل أداة لإنقاذ الماضي.

الواقع يقول: لم يحدث.. فتقول العقيدة: سيحدث.

ثم يصبح عدم تحقق النبوءة دليلًا على أن الوقت لم يحن !

وهذا يجعل النظرية غير قابلة للاختبار التاريخي؛ لأنها إن حدثت.. يُقال: صدقت، وإن لم تحدث.. يُقال: لم يحن وقتها.

وهنا تنتقل العقيدة من الخبر القابل للتحقق إلى بنية قادرة على تأجيل التكذيب إلى أجل غير مسمى..!!

السادس والعشرون: من الغيبة إلى "الباب".. حين طال الغياب، كان لابد من السؤال: كيف يتصل الناس بالإمام؟ فنشأت مفاهيم مثل: النائب.. السفير.. الباب.. الوكيل، ثم انتهت الإمامية إلى الغيبة الكبرى، لكن هذه اللغة نفسها ستصبح، بعد قرون، البيئة التي خرجت منها الشيخية ثم البابية.. وهنا نصل إلى

مفارقة التاريخ: الإمام الغائب الذي صُمم لحماية خاتمية النبوة قد أصبح في بعض المسارات مدخلا إلى دعوى ظهور جديد.

السابع والعشرون: الشيخية والبابية والبهائية – عندما تنقلب وظيفة الانتظار.. لا يصح أن نسمي البهائية "فرقة شيعية"؛ فهي دين مستقل نشأ تاريخيا من البيئة الشيعية الإيرانية، وبخاصة من البابية، لكنها مهمة في نهاية السلسلة؛ لأن الشيخية أعادت التركيز على العالم الباطني وعلاقة الإنسان بالإمام الغائب، ثم أعلن الباب سنة ١٨٤٤ دعوى مرتبطة بالإمام المنتظر، ثم تطورت البابية إلى دين مستقل، وانتهت البهائية إلى عقيدة الظهورات الإلهية المتتابعة.. أي أن المسار أصبح: إمام غائب.. حاجة إلى واسطة لمعرفة الإمام.. واسطة ذات مقام خاص.. ظهور صاحب دعوة.. صاحب شريعة.. ظهور إلهي جديد !

ومن هنا يمكن أن نفهم البهائية تاريخيا بوصفها أحد النتائج المتأخرة لبيئة المهدوية الشيعية، لا بوصفها مذهبا شيعيا قائما إلى اليوم.

الثامن والعشرون: أين وقع الخطأ إذن؟ الخطأ ليس في: محبة علي، ولا في: محبة الحسين، ولا في: تعظيم أهل البيت، ولا في: رفض الظلم، ولا في: الحزن على كربلاء.. بل في نقل هذه المعاني من مجالها الصحيح إلى نظرية أخرى: تحويل فضائل أهل البيت إلى منصب إلهي مستمر بعد خاتم الأنبياء، ثم جعل هذا المنصب قائمًا على العصمة والنص الشخصي.

فإذا أثبتَّ ذلك، وجب عليك أن تثبت: الإمام الأول.. ثم: الإمام الثاني.. ثم: الثالث... وإذا مات أحدهم: من بعده؟ وإذا لم يكن له ولد: من النص؟ وإذا مات

ولده: هل غاب؟ وإذا غاب: من نائبه؟ وإذا اختلف الناس في النائب: أي نص؟ وإذا تعارض النص مع الظاهر: ما الباطن؟ وإذا ظهر مدع جديد: هل هو الباب؟ وإذا ادعى الوحي: هل انقطعت النبوة؟ وهكذا يتحول الخطأ الأول إلى آلة توليد أزمات.

التاسع والعشرون: أزمة العقل – حين يصبح السؤال ممنوعا.. وهنا نصل إلى أخطر مرحلة.. العقل بطبيعته يسأل: ما الدليل؟ لكن إذا قيل له: الإمام معصوم؛ فسيسأل: وكيف ثبتت عصمته؟ فيقال: بالنص، فيقول: وكيف ثبت النص؟ فيقال: برواية الإمام أو من سبقه، فيقول: وكيف ثبت إمامته؟ فتعود الدائرة.. وهنا تظهر الدورية المعرفية: الإمام يثبت النص، والنص يثبت الإمام..! ثم يقال: العقل عاجز عن إدراك حقيقة الإمام.. فتصبح مطالبة العقل بالدليل نفسه دليلا على قصوره.

وهنا تبدأ أزمة العقل؛ ليس لأن الشيعة لا يستخدمون العقل؛ لكن المشكلة في مرجعية العقل: هل العقل يحاكم النص؟ أم النص المفترض يحاكم العقل؟

إذا قال العقل: هذا التأويل بعيد.. قيل: لأنك لا تعرف الباطن.

وإذا قال: هذا الشخص لا يثبت إماما.. قيل: النص السابق أثبته.

وإذا قال: أين النص السابق؟ قيل: ورد عن الإمام.

فتعود الدائرة.

الثلاثون: أزمة النص وأزمة العقل وجهان لمشكلة واحدة.. أزمة النص تقول: لا أجد في النص ما يكفي لإثبات ما بنيتم عليه، وأزمة العقل تقول: وكلما طلبت البرهان، أحلتموني إلى منظومة لا يمكنني اختبار أساسها إلا من داخلها..! وهذا

أخطر من مجرد اختلاف مذهبي؛ لأن الاختلاف الطبيعي يقول: هذا النص أقوى من هذا النص.. أما الأزمة التي نتحدث عنها فتقول: هذا هو النص الحقيقي، لكنك لن تفهمه إلا إذا قبلت الإمام الذي يفسره.. وهكذا يصبح القبول بالإمام شرطا لفهم النص، ثم يصبح فهم النص دليلا على الإمام..!

وهذه دائرة معرفية مغلقة.

الحادي والثلاثون: لماذا تكاثرت الفرق؟ الآن يمكننا فهم ظاهرة مذهلة: لماذا كلما مات إمام انقسم أتباعه؟ لأن النظرية تحمل في داخلها سؤالا لا يمكن تأجيله: من التالي؟

في الإسلام، موت العالم لا يهدد أصل الدين: يموت عالم: تبقى الأمة.

يموت محدث: تبقى السنة.. يموت فقيه: يبقى القرآن والسنة والاجتهاد.

أما في نظرية الإمام المعصوم: موت الإمام أزمة في بنية الدين نفسها.

ولهذا كانت كل وفاة مفصلا مذهبيا محتملا، وهكذا يمكن تفسير كثرة الانشقاقات المبكرة..

لقد كانوا يحاولون بالفعل الإجابة عن سؤال زرعته النظرية نفسها..!!

الثاني والثلاثون: المفارقة الكبرى.. التشيع أراد – في أصله العقدي – أن يمنع ضياع الحق بعد النبي.. فقال: لابد من إمام معصوم.. لكن النتيجة التاريخية كانت: اختلافًا في الإمام.. ثم: اختلافا في النص.. ثم: اختلافا في تفسير النص.. ثم: اختلافا في الباطن.. ثم: غَيبة.. ثم: نواب.. ثم: مرجعية.. ثم: غلاة.. ثم: باطنية.. ثم: إسماعيلية.. ثم: دروز.. ثم في مسار آخر: اثنا عشرية.. ثم في مسار متأخر:

شيخية.. بابية.. بهائية.

أي أن النظرية التي أرادت أن تمنع تفرق الأمة حول الحقيقة أصبحت واحدة من أعظم مولدات الأسئلة حول: من يملك الحقيقة..؟!

الثالث والثلاثون: ولكن هل كل فرق الشيعة نتيجة واحدة؟ لا.. فالزيدية ليست كالغلاة، والإمامية الاثنا عشرية ليست كالنصيرية، والإسماعيلية ليست كلها كالقرامطة، والقرامطة ليسوا الفاطميين، والفاطميون ليسوا النزارية، والدروز خرجوا من بيئة إسماعيلية لكنهم صاروا منظومة دينية مستقلة، والبهائية ليست فرقة شيعية معاصرة، وإنما خرجت تاريخيًا من البيئة البابِيّة المتشكلة داخل التشيع الإمامي.

بل حتى داخل الاثني عشرية نفسها نشأت مدارس أخبارية وأصولية، وهي ليست طوائف مستقلة كالزيدية والإسماعيلية، وإنما مدارس داخل المذهب.

إذن لا ينبغي أن نكتب التاريخ على صورة خط مستقيم: علي.. الإسماعيلية.. الدروز.. البهائية، هذا غير صحيح.

الأدق أن نقول: هناك أصل مشترك أو بيئة مشتركة، ثم أزمات متكررة، ثم حلول إسعافية متعددة، فتفرعت الطرق.

الرابع والثلاثون: القانون الذي يحكم الشجرة كلها.. يمكن تلخيص تاريخ هذه الفرق في المعادلة التالية: فكرة مطلقة.. شخص بشري.. نص غير حاسم في التطبيق: أزمة عند وفاة الشخص.

ثم: أزمة.. رفض مراجعة الفكرة: حل إسعافي.

ثم: الحل الإسعافي.. الزمن: عقيدة جديدة.

ثم: العقيدة الجديدة.. موت حاملها: أزمة جديدة... وهكذا.

الخامس والثلاثون: وما الذي كان سيمنع الشجرة كلها؟ ليس المطلوب أن نحذف عليًا، ولا أهل البيت، ولا الحسين، ولا المظالم التاريخية.. بل المطلوب أن نقف عند الحد الذي وقفت عنده الرسالة المحمدية: النبي ﷺ خاتم الأنبياء، ولا معصوم بعده.. ومن ثم: القرآن حجة.. السنة حجة.. الصحابة بشر غير معصومين.. أهل البيت مكرمون غير معصومين.. العلماء يُؤخذ منهم ويُرد عليهم، لا رجل يحمل مفتاحا سريا للوحي، ولا إماما غائبا تتوقف صحة الدين على وجوده، ولا باطنا يلغي ظاهر الشريعة

وهنا يصبح موت علي أو الحسن أو الحسين أو الباقر أو الصادق موت عالم أو إمام سياسي أو رجل صالح، لا موت "واسطة إلهية" يؤدي غيابها إلى انهيار نظرية الهداية.

وهذا وحده كان كافيا لإطفاء معظم الأزمات قبل أن تولد.

هكذا كان التحول: من "حفظ الحقيقة" إلى "احتكار الحقيقة".. فلعل أخطر تحول وقع هو هذا: في البداية كان السؤال: كيف نحفظ الحق؟ ثم صار: من يحمل الحق؟ ثم: من يملك حق تفسير الحق؟ ثم: من يملك الباطن؟ ثم: من يملك الإذن عن صاحب الباطن؟ ثم: من يملك حق الكلام باسم الغائب؟ ثم: من يملك حق إعلان الظهور؟

وهنا تكون النهاية قد ابتعدت كثيرا عن نقطة البداية.. فبدل أن يكون الدين: وحيا مكشوفا للعالمين.. صار سرا محفوظا عند طبقة من الأشخاص، وبدل أن يكون

النبي ﷺ: خاتم سلسلة النبوة.. صار بداية سلسلة من أصحاب الحقيقة الخاصة، وبدل أن يكون النص: حاكما على الرجال.. صار الرجل حاكما على معنى النص. وهذه هي ورطة النص، ومنها أزمة العقل.

فالخطأ لم يكن أن أناسا أحبوا عليًا أكثر من غيره؛ فمحبة علي ليست جريمة، بل من الدين محبة أهل بيت النبي ﷺ.. ولم يكن الخطأ أن يحزنوا للحسين؛ فالحسين سيد من سادات أهل البيت.. إنما الخطأ كان أن تُنقل هذه المحبة من: فضيلة.. إلى: إمامة، ثم من: إمامة.. إلى: عصمة، ثم من: عصمة.. إلى: علم غيبي، ثم من: علم غيبي.. إلى: مرجعية باطنية.

وعندها يصبح السؤال الذي بدأ سياسيا: من يحكم بعد النبي؟ قادرا – بعد قرون من الإنقاذات الإسعافية – على أن ينتهي إلى سؤال بالغ الخطورة: هل يمكن أن يأتي بعد النبي صاحب وحي جديد؟

ومن هنا نفهم كيف أمكن لمسار بدأ بالبحث عن الإمام الذي يحفظ الدين أن ينتهي في فروعه المتأخرة إلى إعادة تعريف الوحي نفسه.. وهذه، في نظري، هي المأساة الفكرية الكبرى: حين ظُنَّ أن الدين لا يُحفظ إلا بشخص معصوم بعد النبي ﷺ، أصبح حفظ الدين متعلقًا ببقاء صورة ذلك الشخص في الوعي؛ فإذا غاب الشخص، اضطر العقل إلى اختراع الغيبة، وإذا تعذر الوصول إليه اخترع النيابة، وإذا اختلفت النيابة اخترع الباطن، وإذا طال الانتظار ظهر مدّعو الباب، وإذا اكتمل الانفصال أمكن أن يظهر من يقول: إن الوحي لم يُغلق بابه أصلا..! ومن هنا لا تكون كثرة الفرق حادثة عرضية، بل تصبح الأزمة كامنة في البذرة نفسها:

كلما جعلتَ شخصا بعد النبي شرطا لفهم الدين، سألك التاريخ: من هو؟ وكلما أجبتَ، سألك الموت: ومن بعده؟ وكلما أجبتَ، سألك الغياب: أين هو؟ وكلما أجبتَ، سألك النص: أين دليلك؟ وكلما أجبتَ بالباطن، سألك العقل: ومن أعطاك مفتاحه؟

وهكذا تبدأ من الإمامة، وتنتهي إلى أزمة المعرفة، والخلاص من هذه الدائرة ليس باختراع إمام جديد، ولا باختراع باطن جديد، ولا بتأجيل الجواب إلى غيبة جديدة؛ وإنما بالعودة إلى الأصل البسيط الذي لا يحتاج إلى هذه الإنقاذات كلها: مات النبي ﷺ، واكتمل الوحي، وحُفظ الكتاب، وبقيت السنة، وانتهت العصمة النبوية، وأصبح الرجال – مهما علت منزلتهم – يُوزنون بالوحي، لا يُوزن الوحي بهم.

مناظرة تَخَيُّلِيَّة لتشبيت الفكرة

المناظرة ستكون أقوى إذا دخلناها من الباب الذي اتفقنا عليه في التمهيد: ما الفكرة الأصلية التي أضافها التشيع إلى الإسلام؟ وكيف اختبرها التاريخ؟ وماذا فعلت الجماعات حين اصطدمت النتيجة بالواقع؟ وسأجعل المناظرة مع ممثل لكل اتجاه رئيسي، مع التنبيه أن "الشيعة" ليسوا فرقة واحدة، وأن بعض الفروع اندثر.

الحلول الإسعافية المتتابعة: الغلو – الوصية – المهدوية – الرجعة – الغيبة – الباطن – النيابة.

وكل حل منهم ينقذ الفكرة من أزمة ويخلق أزمة جديدة..!!

الانشقاقات: كيسانية.. زيدية.. إمامية.. إسماعيلية.. اثنا عشرية.. غلاة/باطنية.. دروز.. ثم في مسار متأخر: شيخية.. بابية.. بهائية

والآن إلى المناظرة: المشهد الأول: مع "الشيعي الأول"

وليد: ما الذي تريدونه من البداية؟

الشيعي: نريد حق علي وأهل البيت.. النبي ﷺ لم يترك الأمة هملا، وعلي هو الأحق.

وليد: جميل. فلنضع الخلاف في موضعه الدقيق.. هل تقول إن عليًا أفضل رجل بعد النبي؟

الشيعي: نعم.

وليد: هذا بحث.. هل تقول إنه أولى بالخلافة سياسيا؟

الشيعي: نعم.

وليد: وهذا بحث آخر.. أم تقول شيئا ثالثا: إن الله جعل عليًا إماما إلهيا معصوما، منصوصا عليه، واجب الطاعة في الدين، ثم جعل الإمامة في ذريته بنص إلهي؟

الشيعي: نعم.

وليد: إذن الآن بدأت العقيدة الخاصة.

والسؤال البسيط: أين النص القطعي الذي يقول للأمة: بعد خاتم الأنبياء سيكون هناك سلسلة من الأئمة المعصومين، وهذه أسماؤهم؟

الشيعي: لدينا الغدير، والثقلان، والمنزلة، وغير ذلك.

وليد: هذه نصوص يمكن أن تُبحث دلالاتها.. لكنني أسألك شيئا أدق: أين النص الذي لا يحتمل النزاع، والذي يفهم منه المسلم الذي كان يعيش مع النبي ﷺ أن هناك منصبا إلهيا اسمه الإمامة المعصومة بعد النبوة؟

فإن كان هذا أصل الدين، لماذا لم يكن إعلانا في وضوح الصلاة والزكاة والصوم؟

الشيعي: لأن النبي بيّن ذلك لمن ينبغي أن يفهم.

وليد: إذن صار أصل من أصول النجاة متوقفا على نصوص يمكن للأمة نفسها أن تختلف في دلالتها؟

هنا تبدأ المشكلة.

المشهد الثاني: المناظرة مع الكيساني

الكيساني: مُحَمَّد بن الحنفية هو الإمام.

وليد: لماذا؟

الكيساني: لأنه من أهل البيت، وهو صاحب الأمر.

وليد: هل كان مُحَمَّد بن الحنفية معصوما منصوصا عليه من الله؟

الكيساني: نعم.

وليد: أين النص؟

الكيساني: توجد دلائل.

وليد: إذن أنت الآن تكرر المشكلة نفسها: نحتاج إلى إمام لأننا افترضنا وجود إمام..! لكن التاريخ أعطانا "مشكلة جديدة": مُحَمَّد بن الحنفية مات.. فماذا تفعل؟

الكيساني: نقول إنه لم يمت، بل هو المهدي الغائب.

وليد: لحظة.. أليس الأصل أن الإمامة منصب ظاهر يهدي الأمة؟

الكيساني: نعم.

وليد: فكيف أصبحت وفاة الإمام دليلا على أنه لم يمت؟

هذه أول "فكرة إسعافية":

المشكلة: الإمام مات.

الحل: لم يمت؛ إنه غائب !

لكن بهذا الحل ولدت قاعدة خطيرة: إذا اصطدمت العقيدة بالواقع، لا يلزم أن نراجع العقيدة؛ يمكن أن نعيد تفسير الواقع.

وهذه القاعدة ستتكرر كثيرا.. كثيرا..

المشهد الثالث: الزيدي

الزيدي: نحن لا نقول بكل هذا.. الإمام هو من قام من آل البيت ودعا إلى نفسه، وكان عالما شجاعا.

وليد: إذن الإمام ليس بالضرورة منصوصا عليه شخصيا؟

الزيدي: عندنا شروط للإمام، وليس الأمر محصورا في سلسلة غيبية.

وليد: ممتاز.. أنت بذلك تراجعت خطوة عن المشكلة الأصلية.. فأنت تجعل الإمامة أقرب إلى قيادة دينية سياسية مشروطة بالعلم والقيام، لكن اسأل نفسك: إذا كان هذا هو الأصل، فلماذا تحتاج إلى القول إن الإمامة منصب إلهي محصور في شخص معين؟

الزيدي: لأن أهل البيت أحق.

وليد: هذه عودة إلى نقطة البداية: الأحقية لا تساوي العصمة، والقرابة لا تساوي النص الإلهي.

وهنا يظهر الفرق: الزيدية احتفظت بفكرة الإمامة العلوية، لكنها لم تذهب

بالضرورة إلى البناء الباطني الذي ذهب إليه غيرها.

المشهد الرابع: المُغالي

المغالي: الإمام ليس مجرد عالم أو حاكم.. بل فيه سر إلهي.

وليد: من أين جاء هذا؟

المغالي: لأن الإمام لا يخطئ في الدين.

وليد: بدأت بـ: الإمام لا يخطئ.. ثم انتقلت إلى: الإمام يعلم ما لا يعلمه الناس.. ثم: الإمام صاحب سر خاص.. ثم: السر الإلهي يظهر فيه، أليس هذا تصعيدا تدريجيا؟

المغالي: لكنه مقامه عظيم.

وليد: أنا لا أنكر عظمة آل البيت.

لكن هناك حدا فاصلا بين: التكريم.. و: التأليه.

ومن هنا ظهر الغلو الذي رفضه علي وأهل البيت أنفسهم في الروايات المنقولة عنهم.. وهنا تكون المفارقة: الفكرة التي بدأت بتعظيم أهل البيت انتهت عند بعض أتباعهم إلى قول لو سمعه أهل البيت أنفسهم لأنكروه.

المشهد الخامس: الإسماعيلي

الإسماعيلي: نحن نملك سلسلة الأئمة، والإمام هو صاحب العلم الباطني.

وليد: لماذا تحتاجون إلى "الباطن"؟

الإسماعيلي: لأن النصوص ليست كلها على ظاهرها.

وليد: ومن يحدد الباطن؟

الإسماعيلي: الإمام.

وليد: ومن يثبت أن هذا الشخص هو الإمام؟

الإسماعيلي: النص السابق عليه.

وليد: ومن يثبت صحة النص السابق؟

الإسماعيلي: الإمام.

وليد: إذن وقعتم في دائرة مغلقة: الإمام يثبت النص، والنص يثبت الإمام، وهنا يصبح المذهب قادرا على حماية نفسه من أي اعتراض؛ لأن كل اعتراض يمكن أن يُجاب عنه: "أنت لم تعرف الباطن".. وهذه ليست إجابة على البرهان، بل نقل لمعيار البرهان نفسه إلى داخل المنظومة..!

المشهد السادس: الاثنا عشري

الاثنا عشري: لا تخلطنا بالغلاة.. نحن نقول اثني عشر إماما، وآخرهم مُحَمَّد بن الحسن.

وليد: ممتاز.. إذن لنأخذك من نقطة قوتك.. أين الإمام الثاني عشر؟

الاثنا عشري: غائب.

وليد: منذ متى؟

الاثنا عشري: منذ القرن الثالث الهجري.

وليد: إذن لدينا مشكلة تاريخية ضخمة: الأمة تحتاج إلى إمام معصوم في الدين.. والإمام موجود.. لكن لا يستطيع الناس الوصول إليه.. فكيف يعرفون حكم الله؟

الاثنا عشري: كان له نواب، ثم الغيبة الكبرى، والفقهاء يرجعون إليهم.

وليد: إذن حدث التحول التالي: الإمام المعصوم.. غائب.. الفقيه يتولى بيان أحكام الدين في غيبته.. لكن أسألك: إذا كان وجود الإمام المعصوم ضروريا لحفظ الدين، فكيف استغنت الأمة عمليا عنه أكثر من ألف سنة؟

الاثنا عشري: هو موجود حفظا للحجة.

وليد: إذن أصبحت وظيفة الإمام من الهداية الفعلية للأمة إلى الوجود الغيبي الذي يحفظ الحجة، وهذا تعديل كبير في وظيفة الفكرة الأصلية..!

المشهد السابع: الإسماعيلي يرد على الاثني عشري

الإسماعيلي: بل أنتم الذين أخطأتم.. الإمام لم ينقطع، والإمامة مستمرة في نسل إسماعيل.

الاثنا عشري: بل أنتم انحرفتم عن النص الصحيح.

وليد: توقفوا.. هذا بالضبط ما أريد الوصول إليه: كل واحد منكما يقول للآخر: أنت انحرفت عن الإمامة الحقيقية.. لكن كلاكما بدأ من الفكرة نفسها: هناك إمام إلهي بعد النبي ﷺ.. ثم اختلفتما في: من هو؟ فإذا كان أصل النظرية لا يملك آلية متفقا عليها لحسم سؤال الإمام، فقد أصبح تعيين الإمام هو "مصنع الفرق"..!

المشهد الثامن: الدروزي

الدروزي: نحن خرجنا من الإسماعيلية في سياق خاص، والحاكم بأمر الله له مقام خاص.

وليد: وهذا مثال ممتاز على ما يحدث عندما تتضخم فكرة الإمام حتى تصبح قابلة للتحول إلى تصور ميتافيزيقي جديد.. فأنتم لم تعودوا تبحثون: من الخليفة؟ ولا: من

الإمام؟ بل: ما طبيعة التجلي الإلهي في التاريخ؟ وهكذا تحول سؤال سياسي بدأ في القرن الأول إلى سؤال عن طبيعة الإله والتجلي والمعرفة الباطنية.. وهذه هي القفزة التي تصنع دينًا جديدًا.

المشهد التاسع: الشيخية

الشيخي: نحن ننتظر الإمام الغائب، لكن لابد من رجل يمثل الحقيقة الباطنة ويفهم أسرارها.

وليد: لاحظوا جميعًا..! الإمام غائب.. فماذا حدث؟ ظهر: الباب.. وكلما طال الغياب، ازدادت الحاجة إلى شخص يقول: "أنا أعرف مقام الإمام وأسراره أكثر منكم".. وهذه "بيئة خصبة" لظهور مثل هذه الدعاوى..!

المشهد العاشر: البابي

البابي: أنا باب الإمام.

وليد: ممتاز.. إذن أنت لا تدعي النبوة بعد؟

البابي: أنا باب إلى الحقيقة.

وليد: لكن ماذا يحدث عندما يصبح "الباب" صاحب تشريع مستقل؟ هنا يتحول: نائب الإمام.. إلى: مظهر جديد للوحي، وهذا بالضبط ما حدث تاريخيًا في تطور البابية نحو مرحلة مستقلة عن الإسلام نفسه..!!

المشهد الحادي عشر: البهائي

البهائي: الحقيقة الإلهية لا تنقطع، والرسل مظاهر إلهية متتابعة.

وليد: وهنا وصلنا إلى النهاية المنطقية التي كنت أخشى منها منذ البداية.. بدأت

القصة بـ: لا بد أن يكون بعد النبي إمام معصوم يحفظ الدين.. ثم: الإمام غائب.. ثم: نحتاج إلى نائب.. ثم: النائب باب.. ثم: الباب صاحب ظهور جديد.. ثم: الظهور الإلهي يمكن أن يتجدد.

والنتيجة: النبي الخاتم لم يعد خاتما.

البهائي: بل الخاتمية تعني مرحلة، لا انقطاع الوحي.

وليد: إذن أنت لم تعد داخل السؤال الشيعي الأصلي أصلا.. لقد أعدت تعريف خاتم الأنبياء كي تحل أزمة نشأت عندك من غياب الإمام، وهذه نقطة فاصلة: عندما تضطر إلى إعادة تعريف النص المؤسس لإنقاذ البناء الذي بنيته فوقه، فالمشكلة ليست في النص؛ المشكلة في البناء..!

ثم أجمعهم جميعا أمام السؤال الواحد: أقول لهم: دعونا ننسى للحظة كل الخلافات بينكم.. أنتم جميعا بدأتم من سؤال: كيف لا تضيع هداية الله بعد النبي؟ وكان يمكن أن يكون الجواب: لن تضيع؛ لأن النبي ﷺ خاتم الأنبياء، والوحي اكتمل، والقرآن محفوظ، والسنة مبينة، ولا عصمة لبشر بعده.. لكنكم اخترتم جوابا آخر: لا بد من شخص إلهي بعد النبي يحفظ الحقيقة.. فقلتم: علي.. ثم: الحسن أو الحسين أو ذريته.. ثم: مُحَمَّد بن الحنفية.. ثم: زيد.. ثم: جعفر.. ثم: إسماعيل أو ذريته.. ثم: اثنا عشر إمامًا.. ثم: الإمام غائب.. ثم: الشيخ.. ثم: الباب.. ثم: ظهور جديد.

وكل فريق يقول للفريق السابق: أنت أخطأت في تحديد حامل الحقيقة.

فأسألكم: أليس هذا دليلا على أنكم جعلتم "حامل الحقيقة" أصلا قبل أن تثبتوا أصل وجوده؟

وهنا الصمت.

والضربة الأخيرة: ماذا لو حذفنا الفكرة الزائدة؟ لنجرّب تجربة عقلية: نحذف فقط هذه العبارة: "هناك إمام معصوم معيّن من الله بعد النبي ﷺ".. ماذا يحدث؟ لن تختفي محبة علي.. لن تختفي فضائل أهل البيت.

لن تختفي مكانة الحسن والحسين.. لن تختفي السنة.. لن يختفي القرآن.

لن تختفي الخلافة.. لن تختفي ضرورة العدل.. ولن يختفي وجوب نصرة المظلوم.

الذي يختفي هو فقط: الحاجة إلى سلسلة الأشخاص المعصومين.

وبالتالي تختفي معها معظم الأزمات التي بنت نفسها فوقها: من الإمام؟ من نص عليه؟ من بعده؟ ماذا بعد موته؟ هل مات أم غاب؟ من نائبه؟ ما الباطن؟ من يعرفه؟ هل ظهر القائم؟ هل يمكن أن يأتي رسول جديد؟

وهنا أظن أن العبارة الجامعة للمناظرة كلها هي: لم تكن الكارثة في حب آل البيت؛ بل في تحويل حبهم إلى "نظرية خلاص"، وتحويل القرابة إلى عصمة، والعصمة إلى إمامة إلهية، ثم محاولة "إنقاذ" هذه النظرية كلما اصطدمت بالتاريخ بافتراض جديد.

والأشد إثارة أن كل فرقة من هذه الفرق اتهمت الأخرى بأنها اخترعت حلًا إسعافيا لمشكلة الإمام؛ بينما إذا رجعنا خطوة واحدة إلى الخلف وجدنا أن الأزمة الأولى نفسها نشأت من افتراض الحاجة إلى الإمام المعصوم بعد خاتم الأنبياء !

الخاتمة

ورطة النص: عندما يتحول الدليل إلى عبء

نصوص قليلة، موهمة، لا تسعف مشروعا بطول التاريخ، ومع ذلك طُلب لها أن تحمل جبالا من العقائد والسياسة والسماء والأرض وما بينهما.

ومن ورطة النص الأولى جاء السؤال: كيف يُبنى نظام كامل على أحاديث لم يشهد أحد من الصحابة بصحتها، ولا عرفها أحد قبل عصر متأخر ؟

وكيف تُصاغ إمامة – كونية – على روايات بلا شاهد قرآني واحد، بينما القرآن نفسه ينفي أن يكون في الدين حرج ! فليس من الحكمة أن يسلم العقل شيئا يخالف كتاب الله، وسيرة النبي ﷺ، وإجماع الصحابة، وبداهات التاريخ !!

النص – بوضعه الهشّ – لم يكن كافيا لإقامة بنيان..

وهنا بدأت الورطة تتحول إلى أزمة.

من الورطة إلى الأزمة: العقل الذي يبحث عمّا يسند الرواية

عندما يغيب النص، يلجأ العقل إلى الترقيع.

وحين يضيق العقل، يلجأ أصحاب الفكر إلى «التأويل».

ثم تتسع الهوة: لا النص ثابت، ولا التأويل مقنع، ولا الواقع يساعد.

تضطرّ الفكرة إلى إعادة تشكيل نفسها كلما اصطدمت بالواقع: ففكرة العصمة تتساقط أمام العقول، فيأتي مفهوم «التقية» ليسدّ فراغ المنطق.

وفكرة الإمامة الإلهية تصطدم بغيبة الإمام، فيأتي مفهوم «النيابة العامة» ليسد فراغ السلطة.

وفكرة الحجة القائم تتعارض مع ألف عام من الغياب، فيأتي «الانتظار» ليغطي عجز الحاضر.

لقد أصبح العقل لا ينقذ النص، ولا النص يُسعف العقل.. فولدت الأزمة.

أزمة العقل.. فحين يُجبر المنطق على أن يسير بغير منطق.. ينتج عقلا لا يعمل ليفهم، بل ليدافع.. لا يبحث عن الحقيقة، بل عن مبرّر للاستمرار.

ومن هنا انتقل التشيّع من ورطة النص إلى أزمة العقل: نصوص قليلة تُحمَّل ما لا تحتمل.

وعقل يُجبَر على أن يبرّر ما لا يُبرَّر.

وتاريخ مليء بالتناقضات يحتاج كل يوم إلى ترقيع جديد.

ومدرسة تُلزم أتباعها بأن يفسّروا العالم من خلال غيبة لا نهاية لها.

حينها يتحول البناء الفكري إلى متاهة..

فكل فكرة وُلدت لتسدّ ثغرة في النص.. ولّدت ثغرة.. أخرى.. في العقل.

عقيدة الإمامة ولّدت مشكلة العصمة.

مشكلة العصمة ولّدت مفهوم التقية.

التقية ولّدت مشكلة الثقة في النقل.

الشك في النقل ولّد أزمة في العقيدة.

ثم جاءت الغيبة الكبرى فحوّلت المذهب كله إلى متاهة دائرية لا مخرج منها.

كل سؤال في التشيع يجد إجابته في «الإمام»، لكن الإمام نفسه غائب.

وكل تناقض يبرَّر بالتقية، لكنها تُسقط الثقة في المذهب كله.

وكل رواية تُقدَّم كدليل، لكنها تُناقَض بعشرة روايات أخرى.

إنه بناء فكريّ يتكئ على نفسه، فإذا نُزع منه حجر واحد، انهار على البقية.

نصيحة إلى الشيعة للخروج من الورطة والأزمة

العودة إلى القرآن: الأصل الذي لا يضلّ، فأول الطريق للخروج من الورطة هو ردّ الإسلام إلى مصدره الأول.. فالقرآن الذي تحدّى البشر أن يأتوا بمثله، لم يبح لأحد أن يُقيم دينا على رواية متأخرة، أو يُعلّق عقيدة كبرى على غائب لا يُرى.

القرآن هو الفلك الذي ينجو فيه المؤمنون.. وهو الذي يقول: ﴿ **مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾

فإذا كان الدين لا يقوم إلا بإمام معصوم؛ لكان القرآن أول من نطق بذلك، وأول من بيّنه للناس.

أما أن يُرفع القرآن جانبا، وتُرفع روايات الكتب الأربعة مكانه، فتلك – في ميزان الحق – هي الورطة التي جرّت الأزمة.

إن المذهب الذي يجعل التقية تسعة أعشار الدين، ويجعل العصمة شرطا للإمامة، ثم يقدم روايات بأسانيد هشة لإثبات ذلك كله، يقف – من حيث لا يشعر – على شفا جرف هار..

وأول الطريق يبدأ بإعادة النظر في فكرة الغيبة: عبء المذهب وأصعب مآزقه ! فأكبر أزمة فكرية عند الشيعة ليست الإمامة، بل الغيبة.. فإمام غائب لا يُرى، ولا يشرّع، ولا يحضر جمعة ولا عيدا، ولا يقود أمة، هو في الحقيقة مفهوم لا وظيفة له.. وكلما مرّ الزمن، ازدادت الفجوة بين الفكرة والواقع.

المراجع

- أصل الشيعة وأصولها: مُحَمَّد حسين آل كاشف الغطاء، مؤسسة الإمام علي، قم.
- الأنوار النعمانية: نعمة الله الجزائري، دار الأضواء، بيروت.
- الإرشاد: الشيخ المفيد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد النعمان، مؤسسة آل البيت، قم.
- بحار الأنوار الجامعة لدور أخيار الأئمة الأطهار: مُحَمَّد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت.
- رجال الكشي معرفة أخبار الرجال): مُحَمَّد بن عمر بن عبدالعزيز الكشي، المطبعة الصفوية، بمبئ باي دهوني.
- الرجعة: أحمد بن زين الدين الأحسائي، مكتبة العلامة الحائري العامة، كربلاء.
- عقائد الإمامية الإثني عشرية: الموسوي الزنجاني النجفي، مؤسسة الوفاء، بيروت.
- الغيبة: مُحَمَّد بن إبراهيم النعماني، مكتبة الصادوق، طهران.
- الكافي: أبو جعفر مُحَمَّد بن يعقوب الكليني، دار الكتب الإسلامية، طهران.
- من لا يحضره الفقيه: أبو جعفر مُحَمَّد بن علي بن الحسين بن بابويه، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- منهاج السنة النبوية: شيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- نقباء البشر في القرن الرابع عشر: أغا بزرك الطهراني، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران.



عندما يتحول الدليل إلى عبء

نصوص قليلة، موهمة، لا تسعف مشروعا بطول التاريخ، ومع ذلك طُلب لها أن تحمل جبالا من العقائد والسياسة والسماء والأرض وما بينهما.

ومن ورطة النص الأولى جاء السؤال: كيف يُبنى نظام كامل على أحاديث لم يشهد أحد من الصحابة بصحتها، ولا عرفها أحد قبل عصر متأخر ؟

وكيف تُصاغ إمامة – كونية – على روايات بلا شاهد قرآني واحد، بينما القرآن نفسه ينفي أن يكون في الدين حرج ! فليس من الحكمة أن يسلم العقل شيئا يخالف كتاب الله، وسيرة النبي ﷺ، وإجماع الصحابة، وبداهات التاريخ !!

النص – بوضعه الهشّ – لم يكن كافيا لإقامة بنيان..

وهنا بدأت الورطة تتحول إلى أزمة.. فالعقل الذي يبحث عمّا يسند الرواية، عندما يغيب النص، يلجأ العقل إلى الترقيع.

وحين يضيق العقل، يلجأ أصحاب الفكر إلى «التأويل».

ثم تتسع الهوة: لا النص ثابت، ولا التأويل مقنع، ولا الواقع يساعد.

تضطرّ الفكرة إلى إعادة تشكيل نفسها كلما اصطدمت بالواقع.

وليد صادق